القسم الثالث

ميادين علم الإنسان
«الأنثروبولوجيا»

obeikandl.com

obeikandl.com

ماذا نقصد بميادين الأنثروبولوجيا؟

أشرنا - فيما سبق - إلى أن الأنثروبولوجيا بعد أن أصبحت علْماً مستقلاً (عاماً) خضعت بدورها إلى التطور المعرفي، والانقسام إلى فروع، حسب الموضوعات التي باتت تدرسها، كما يوضح الشكل التالي:

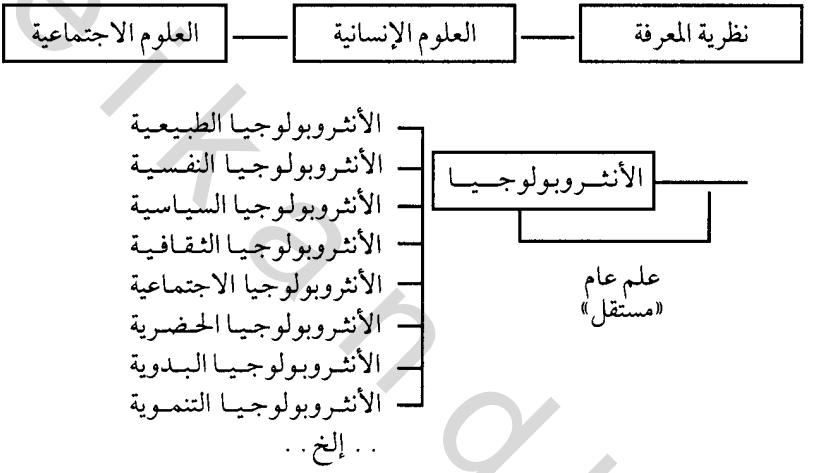

obeikandl.com

إذاً تتعدد ميادين الأنثروبولوجيا وفقاً للتطورات والتغيرات التي تتضمنها وتشملها في دراستها للإنسان وتطوره من الجوانب الطبيعية، والثقافية، والنفسية، والاجتماعية، والفلسفية، والسياسية. . وغيرها.

وسيشمل هذا القسم بعضاً من الميادين الأساسية للأنثروبولوجيا وهي:

- الأنثروبولوجيا الطبيعية.
- الأنثروبولوجيا الثقافية.
- الأنثروبولوجيا النفسية.
- الأنثروبولوجيا السياسية.
- الأنثروبولوجيا الحضرية.
- الأنثروبولوجيا التنموية (أنثروبولوجيا التنمية).
- الأنثروبولوجيا البدوية.

ونشير إلى أن عرضنا لهذه الميادين يشمل الموضوعات التي تدرسها بشكل مختصر، ولا نقف عند تاريخ نشوء كل ميدان وكيفية تطوره وقد اكتفينا بنموذج لذلك هو الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

أولاً: الأنثروبولوجيا البيولوجية:

وتسمى الأنثروبولوجيا الطبيعية أو الفيزيقية - أيضاً -، وهي الميدان المعرفي الذي يدرس البنية العضوية للإنسان استناداً إلى ما يكتشف من

obeikandl.com

هياكل عظمية بشرية وما تقدمه الدراسات التشريحية (علم التشريح) المقارنة، وما يقدمه - أيضاً - علم الحفريات البشرية وعلم الوراثة لتحديد الأنواع البشرية والسلالات التي ينتمي إليها الإنسان ومقارنة ذلك بالعالم الحيواني، وفي إطار تطور هذا الميدان باتت الأنثروبولوجيا البيولوجية تدرس العلاقات بين بعض العوامل مثل: المناخ والارتفاع وتوزيع الموارد وتوزيع السكان وكثافتهم، وتأثير العوامل المرتبطة بتكيف الإنسان، والموروثات المرتبطة بها التي تتداخل بدورها مع الظواهر الثقافية والاجتماعية. وتنقسم الدراسات العديدة والمتنوعة في الأنثروبولوجيا البيولوجية إلى مجالات عدة مثل: دراسة الإنسان كنتائج لعملية التطور، ودراسة وتحليل الجماعات البشرية (دراسة التنوع البشري).

ولا شك أن ما يطلب من الأنثروبولوجيا البيولوجية الآن يشكل البعد المعاصر لهذا الميدان، كأن يطلب منها مثلاً: دراسة ماذا يحدث عندما تتزاوج جماعات مختلفة بعضها عن بعض؟ هل تتميز بعض أنواع البشر بأنها أرقى فطرياً من الأنواع الأخرى؟ وهل هناك علاقة بين النمط البيولوجي للإنسان ومزاجه؟ أو ذكائه (قدراته العقلية)؟ أو اتجاهاته الخاصة؟ أو سلوكه الاجتماعي بشكل عام؟ وهكذا.

إذًا تتعدد موضوعات الدراسة في الأنثروبولوجيا البيولوجية باعتبارها فرعًا من فروع الأنثروبولوجيا الذي يدرس التركيب العضوي للإنسان وخصائص هذا التركيب ومقارنته بالكائنات الأخرى مثل: القردة (على

سبيل المثال) وما هي الخصائص البيولوجية والوظيفية المشتركة؟ أو ما هي نقاط الاختلاف؟ وكيف يعيش هذا الكائن العضوي المتطور تاريخياً في البيئة الاجتماعية (التكيف الاجتماعي)؟

ومن هنا بذلت الجهود لوصف وتحديد موقعه في المملكة الحيوانية، وتحديد أنواعه أو سلالاته المختلفة وبيان تاريخ تطوره، وقد بينت الدراسات في هذا الميدان: أن الأجناس البشرية - بشكل عام - تتمحور في أربع مجموعات هي: الأوروبيون البيض، والآسيويون الصفر، والأمريكيون الحمر، والأفريقيون السود، ويستند هذا التصنيف إلى عامل الموقع الذي يسكنه أبناء كل جنس إلى لون البشرة.

ثانياً: الأنثروبولوجيا الثقافية:

وتعد ميداناً من ميادين الأنثروبولوجيا - أيضاً - وتدرس بالوصف والتحليل موضوعَ الثقافة الإنسانية للمجتمعات القديمة (البدائية) والمجتمعات المحلية (الريفية) ومجتمعات المدينة (أي ثقافة الشعوب) فتبين معناها وخصائصها وعناصرها وكيف تنتشر (تؤثر وتتأثر) وما دورها في بناء الشخصية الأساسية للإنسان، كما تدرس الفروق التي يتميز بها الإنسان استناداً إلى إنتاجه الثقافي الذي يختلف به عن الحيوان؛ لأن جميع الخصائص العضوية والانفعالية مشتركة بين الإنسان والحيوان، والذي يميزهما عن بعضها البعض هي الثقافة كإنتاج حضاري يقدمه الإنسان فقط.

لقد نشأ مصطلح الثقافة عن الحاجة إلى وجود مصطلح ملائم لوصف الجوانب المشتركة لبعض أنواع السلوك التي بلغت مبلغاً عالياً من التطور عن الإنسان، وإن تكن موجودة بدرجة أو بأخرى عند بعض الأنواع الأخرى.

فعلى حين تتميز غالبية الحيوانات بما فيها القردة العليا بأن النوع الواحد منها يتبع أساساً أنماط السلوك نفسها، فإن الإنسان يختلف عن ذلك، بل نجد على العكس من ذلك أن نوع الإنسان العاقل يتميز بتنوع ملحوظ فعلاً في أنماط السلوك على الرغم من أن أفراده يتشابهون عضوياً إلى حد بعيد ويتمتعون بأبنية جسمية متشابهة في جوهرها وبالآليات النفسية نفسها ولعلنا نستطيع أن ندلل على تنوع السلوك الإنساني في كل نشاط تقريباً من ألوان النشاط التي يؤديها الإنسان، فعادات الطعام - على سبيل المثال - تتباين بشكل لا نهائي، فنجد أن جماعات (الإسكيمو) التي تعيش في القارة القطبية تكاد تقتصر في غذائها على اللحوم والأسماك وحدها، على خلاف كثير من الشعوب الهندية والمكسيكية التي قوام غذائها في معظمه على الحبوب والخضروات، كذلك تتنوع عادات اللبس والزينة بالشكل نفسه، فهناك بعض الشعوب مثل سكان أستراليا الأصليين يسيرون شبه عراة، على حين يغطي أبناء شعوب أخرى أجسامهم بالملابس من الرقبة حتى القدمين . . إلخ[٢].

---

(١) انظر: د. محمد الجوهري: الأنثروبولوجيا (أسس نظرية وتطبيقات عملية) الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٠.

(٢) ورد في المصدر ذاته، ص ٦٧.

ومن المفيد هنا أن نشير إلى تعريف الثقافة كأحد موضوعات الأنثروبولوجيا وموضوع رئيس للأنثروبولوجيا الثقافية استناداً إلى التعريف الذي حدده (كلايد كلاهون) وهو أحد الباحثين الأنثروبولوجيين في هذا الميدان.

(الثقافة: هي جميع مخططات الحياة التي تكونت على مدى التاريخ بما في ذلك المخططات الضمنية والصريحة والعقلية واللاعقلية (غير العقلية) وهي موجهه في أي وقت كموجِّهات لسلوك الناس عند الحاجة).

ولعل الثقافة في مفهومها الشامل تعد تلك الإنتاج البشري المادي والمعنوي المتكون تاريخاً حتى اللحظة والذي سيتكون فيما بعد. ونقصد بالمادي: الاختراعات والاكتشافات الملموسة، والمعنوي: كل ما يتعلق بالإنتاج الفكري غير الملموس، مثل ما يتعلق بثقافة البشر الروحية والأدبية والفلسفية وغير ذلك. ولابد من الإشارة - أيضاً - إلى أن ميدان الأنثروبولوجيا الثقافية يدرس (بالوصف والتحليل) الثقافة الرئيسة للإنسان كثقافة المجتمع بشكل عام، والثقافات الفرعية أيضاً كثقافة سكان الجبال أو ثقافة سكان السهول أو السواحل أو غير ذلك وعلاقة الثقافة بالسلوك، وأنماط الثقافة المثالية والواقعية، والخصائص العامة للثقافة مثل: كون الثقافة إنسانية، وعامة، ومكتسبة ومتطورة وأداة للتكيف.. إلخ.

وبشكل عام تدرس الأنثروبولوجيا الثقافية مفهوم الثقافة كشبكة مركبة من الأنماط والموضوعات الأساسية التي تمثل بصفة عامة مجموع ما تعلمته

البشرية، وبفضل قدرة الإنسان على استخدام الرمز، وبالتالي قدرته على نقل الثقافة، فإن مجموع الخبرات البشرية هذا لا يتضمن ما هو معروف حالياً فقط، وإنما يتضمن كذلك معظم ما اكتشفه أبناء العصور الغابرة، وعلى هذا فإن مضمون الثقافة عند الأنثروبولوجيا يتضمن ما يسمى بالتكنولوجا التي تضم أساليب السلوك التي بوساطتها يستغل البشر الموارد الطبيعية للحصول على الطعام ولتصنيع الأدوات والملابس والمساكن والأواني وبقية المصنوعات الأخرى اللازمة لاستمرار حياتهم، وكذلك الاقتصاد الذي يشمل أنماط السلوك وتنظيم المجتمع فيما يتلعق بإنتاج وتوزيع واستهلاك السلع والخدمات والتنظيم الاجتماعي الذي يشمل أسلوب السلوك والتنظيم الاجتماعي فيما يتعلق بالحفاظ على العلاقات المنظمة بين الأفراد والجماعات داخل المجتمع أو بين المجتمع وأحد أقسامه الرئيسة أو بين المجتمع ومجتمعات أخرى. وأيضاً الدين المتضمن أنماط السلوك المتعلقة بعلاقات الإنسان بالقوى العليا وأنساق المعتقدات والطقوس المرتبطة بتقديس كل الإشارة الرمزية التي تتعلق باكتساب المعرفة وتنظيمها ونقلها إلى الآخرين، ومن الواضح أن اللغة تُعد أهم الرموز على الإطلاق وإن كانت هناك رموز أخرى مثل: الدراما والتصوير والأدب... إلخ.

إذاً تدرس الأنثروبولوجيا الثقافية موضوع «الثقافة»، والمعنى المبسط لذلك المفهوم هو طريقة معيشة مجتمع ما، سواء أكان ذلك المجتمع بدائياً أم متخلفاً أم نامياً أو متقدماً. والثقافة من صنع الإنسان وهي ظاهرة طبيعية تخضع لقوانين الطبيعة مثل قانون التطور وقانون البقاء للأصلح؛ ولذلك

يدرسها هذا الميدان بمنهج علمي لا يختلف عن المنهج المستخدم في العلوم الطبيعية لدراسة ظواهر الطبيعة الأخرى. إن قدرة الإنسان على إنتاج الثقافة هي أهم خاصية تميز الإنسان عن باقي الثدييات والحيوانات جميعاً، ومن أهم عناصر الثقافة اللغة، فعن طريقها تجمع وتسجل الثقافة وتنقل من جيل لآخر فيمكن نموها وتقدمها، كما أن الثقافة تزود اللغة بمعظم مضموناتها، فهي التي تعطي الإنسان الموضوعات التي يتكلم عنها، وتشمل الثقافة كذلك كل ما يصنع الإنسان من عناصر المادة مثل: الملبس والمباني والآلات والأدوات التي تزداد كثافة كلما تقدم الإنسان.

ومن أهم عناصر الثقافة العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان، أي النظم الاجتماعية التي يخترعها الإنسان بصورة جماعية لينظم تلك العلاقات الاجتماعية، ويجب التفرقة بين العلاقات الاجتماعية الإنسانية التي تدخل في نطاق الثقافة والعلاقات الاجتماعية التي تظهر بصورة غريزية فطرية عند بعض الحشرات والحيوانات، لا بل إن بعض تلك العلاقات الاجتماعية الغريزية أكثر تنظيماً من بعض العلاقات الإنسانية.

وخلاصة القول: إن السلوك الاجتماعي أكثر قدَماً من الثقافة إذ تمتد ظاهرة «المجتمع» إلى أزمنة عظيمة في القدم في تاريخ الحياة على ظهر الأرض، أما «الثقافة» فهي ترتبط بظهور الإنسان على وجه الأرض، وكان لاكتشاف مفهوم «الثقافة» على يد العلامة (تيلور) أكبر الأثر في تنظيم موضوعات هذا العلم في إطار واحد، فهو المركز الذي تنظم حوله معظم الظواهر التي ترتبط عن قريب أو بعيد بالإنسان. ولإعطاء فكرة عن

الموضوعات الكثيرة والمختلفة التي تدخل في نطاق الثقافة أشير إلى التعريف المبسط للثقافة بأنها: الكل المتكامل لأنماط السلوك المكتسبة التي يأخذ بها معظم أفراد مجتمع معين.

يجمع هذا التعريف كل أنماط السلوك التي يكتسبها الفرد في المجتمع والتي تأخذ الصفة الاجتماعية أي يعترف بها معظم أعضاء المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد، وهكذا يدخل في الثقافة كل أنماط السلوك التي تمثل علاقة الإنسان بالمادة، مثل: أسلوبه في بناء مسكنه، وفي ملبسه وفي الأدوات والآلات والأسلحة التي يستخدمها، فإن كل عنصر مادي من صنع الإنسان ويطبق بصورة جماعية يعد جزءاً من الثقافة. وتشمل الثقافة كذلك جميع أنماط السلوك التي تمثل علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، أي النظم الاجتماعية مثل: نظم اللغة والاقتصاد والعائلة والسياسة والدين والأخلاق ونظم القرابة والعادات والتقاليد والآداب العامة والفنون. كما أن الثقافة تجمع كل أنماط السلوك التي تمثل علاقة الإنسان بعالم الأفكار، مثل: المبادئ والمثل العليا التي يؤمن بها مجتمع معين، وكذلك القوانين العلمية التي يصل إليها. إن هذه المجموعات الثلاثة للعناصر الثقافية لا توجد في الواقع الاجتماعي بصورة مستقلة عن بعضها وإنما في حالة تداخل وتشابك؛ بحيث لا يمكن التمييز بين ما هو مادي وما هو فكري أو اجتماعي.

تبين لنا فيما سبق أن موضوع دراسة الأنثروبولوجيا الثقافية هو الثقافة؛ ولذلك ارتبطت نشأة هذا الفرع للأنثروبولوجيا بظهور أول مفهوم واضح لاصطلاح الثقافة، وقدتم ذلك لأول مرة على يد العلامة الإنجليزي «تيلور» في عام ١٨٧١ حين قال:

«الثقافة: هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات، وأي قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في المجتمع» وقد ساد هذا التعريف عند كل رواد هذا الفرع في القرن التاسع عشر، بل إن العلامة الأمريكي «لوي» (الذي يعد مؤسس الأنثروبولوجيا الثقافية في أمريكا) قد بدأ كتابه الشهير «المجتمع البدائي عام ١٩٢٠» بنقل تعريف تايلور للثقافة ووصفه «بالتعريف الشهير»، ومن الرواد الآخرين لهذا الفرع في أمريكا كل من (مورجان) و(باندلبير) و(كاشينج) و(دورسي) و(فليتشر)، أما في انجلترا فبالإضافة إلى العلامة تايلور نجد العلماء (مين) و(ماكلينان) و(بت ريفز) و(لبوك) و(روبرتسون سميث) و(فريزر)، ومن العلماء الألمان العلامة (باخوفين)، ومن العلماء الفرنسيين (فوستيل دي كولوني).

تنتمي نظريات هؤلاء الرواد وآراؤهم إلى (المدرسة التطورية)، وهي المدرسة التي تهتم بالبحث عن نشأة المجتمع الإنساني والثقافة، ومحاولة رسم صورة عامة لتطور الثقافة منذ القدم. وقد انتشر الاتجاه التطوري في معظم العلوم الاجتماعية في ذلك الوقت بسبب تأثير نظرية (دارون) في التطور العضوي، وأذكر على سبيل المثال نظرية العلامة الأمريكي مورجان (١٨١٨-١٨٨١) الخاصة بتطور المجتمع الإنساني من حالة المجتمع البدائي القديم إلى حالة المجتمع المدني الحديث ويفرق بين المجتمعين على أساس الخواص الآتية:

اتجاه التطور

المجتمع المدني الحديث	المجتمع البدائي القديم
١- مركز الفرد ودوره يتحددان عن طريق العلاقات الشخصية .	١- مركزالفرد ودوره يتحددان عن طريق علاقات غير شخصية .
٢- كل فرد يعتقد أنه مرتبط بجميع أفراد المجتمع ، والمساواة تامة بين الجميع .	٢- توجد طبقات اجتماعية .
٣- القرابة هي أساس العلاقات الاجتماعية .	٣- نظم العمل والأجر والنقود والملكية الفردية هي أساس العلاقات الاجتماعية .
٤- انتشار نظامي العشيرة والقبيلة .	٤- انتشارنظام الدولة .

وكان لظهور العلامة الأمريكي «فرانزبواز» (١٨٥٨-١٩٤٢) أكبر الأثر في توجيه الأنثروبولوجيا إلى وجهة جديدة تختلف عن المدرسة التطورية سابقة الذكر ، ويرجع إليه الفضل في نشر الأنثروبولوجيا الثقافية في أمريكا بحيث أصبح معظم المتخصصين في هذا الفرع من الأمريكيين . ومن الممكن تسمية الاتجاه الجديد «المدرسة التاريخية» ويتمثل في موضوعين .

الأول : الاهتمام بالدراسات التفصيلية لثقافات فردية صغيرة مثل ثقافات العشائر والقبائل ، وتتم داسة العشيرة أو القبيلة في إطار منطقتها الإقليمية الثقافية ، وترمي تلك الدراسة إلى إعادة بناء ثقافة تلك العشيرة أو القبيلة في الماضي وتصور تاريخها .

obeikandl.com

الثاني: المقارنة بين تواريخ مجموعة القبائل التي درست لتحقيق الغرض النهائي للأنثروبولوجيا الثقافية (كما يحدد العلامة بواز) وهو الوصول إلى قوانين عامة لنمو الثقافات، وكانت القوانين التي توصل إليها العلامة «بواز» عن طريق منهجه هذا ذات طابع نفسي.

كان ينظر «بواز» إلى الموضوع الثاني على أنه أكثر أهمية من الموضوع الأول؛ لأنه الغرض النهائي للأنثروبولوجيا الثقافية بل هو الغرض النهائي لكل العلوم. ومنهج المقارنة الذي اعتمد عليه «بواز» للوصول إلى القوانين لم يكن قاصراً في تطبيقاته على نتائج التطور الثقافي وإنما كان يطبقه كذلك على عمليات التطور ذاتها، ورغم الأهمية الكبرى التي أعطاها «بواز» للقوانين الثقافية، فإن تلاميذه قد أهملوا ذلك الهدف[1].

وفي الختام لابد من الإشارة إلى أن الأنثروبولوجيا الثقافية المعاصرة باتت تدرس بالوصف والتحليل موضوعات اكتساب الفرد للثقافة ومشكلات التغير الثقافي وإمكانية الانتفاع العلمي بمعلوماتنا الثقافية على صعيد المجتمع.

ثالثاً - الأنثروبولوجيا النفسية:

يتلخص موضوع الأنثروبولوجيا النفسية[2] في الدراسة العلمية للعلاقة بين الثقافة والشخصية؛ لذلك يعدها بعضهم فرعاً من فروع

---

(١) لمزيد من الاطلاع: انظر: د. عاطف وصفي: الأنثروبولوجيا الثقافية.

(٢) لمزيد من الاطلاع: انظرد. عاطف وصفي، الثقافة والشخصية، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى (١٩٧٥م).

الأنثروبولوجيا الثقافية (الذي يجمع بين مفاهيم الأنثروبولوجيا عن الثقافة ومفاهيم علم النفس عن الشخصية) ولذلك يتطلب هذا الفرع من المعرفة تعاوناً وثيقاً بين المتخصصين في الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم نفس الشخصية.

وعرفت الأنثروبولوجيا النفسية عالمياً بعنوان «الثقافة والشخصية»، وأخذ ينتشر هذا الاصطلاح ويزداد الاهتمام ببحث موضوعاته بصورة سريعة للغاية بالنسبة لحداثة نشأة هذا الفرع.

تهتم الأنثروبولوجيا الثقافية بدراسة ثقافات الإنسان في المناطق المختلفة في العالم دون الاهتمام بتأثير الثقافة في شخصيات حامليها، ويقوم علماء النفس - وبخاصة الأطباء النفسيون - بتحليل شخصيات الأفراد المرضى ويركزون اهتمامهم على مظاهر الاختلاف والتفرد في شخصيات البشر، ولا تثير الثقافة انتباههم، وإنه في الفترة الأخيرة ظهر الاهتمام عند بعض الأنثروبولوجيين بدراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية، ووجد هذا الاهتمام تعاوناً وتجاوباً من بعض علماء النفس وبخاصة الأطباء والمحللين النفسيين، واعترف هؤلاء بالثقافة عاملاً محدداً للشخصية لا يمكن إغفاله عند دراسة الشخصية السوية وغير السوية.

لقد انتشر اصطلاح «الثقافة والشخصية» بصورة سريعة للدلالة على هذا الفرع من المعرفة، ولكن صاحب هذا الانتشار دحض الاعتراضات التي تنادي بتغييره، فمثلاً يرى العالمان «كلاكوهن» و«موراي» أن اصطلاح «الثقافة الشخصية» قد يفهم تناقض وثنائية مثل الذي يوجد في

اصطلاح «الروح والمادة»، لذلك يفضلون استخدام اصطلاح «الثقافة في الشخصية أو الشخصية في الثقافة».

ويتعاون الأنثروبولوجيون مع علماء النفس في هذا الميدان بصورة واضحة، ومن أمثلة ذلك اعتماد الأنثروبولوجيين على المحللين النفسيين في إجراء اختبارات الشخصية وتحليلها وفي تفسير الأحلام، في حين يستعين الأطباء النفسيون بالتقارير الأثنوجرافية للأنثروبولوجيين عند دراستهم للشخصيات السوية والمرضية.

وبضوء ما سبق أخذ الاهتمام بموضوع الثقافة والشخصية يتزايد في الوقت الحاضر بعد تركيز الأنثروبولوجيين على دراسة عمليات التغير الثقافي في المجتمعات البدائية والنامية، وقد أظهرت دراسة عمليات التغير الثقافي أن الفرد في المجتمع ليس مجرد حامل سلبي لثقافة المجتمع، وإنما هو مخترع لعناصر ثقافية جديدة، ولديه القدرة على رفض أي تجديد في ثقافته أو قبوله، وهكذا وجد الباحثون أن الفهم الدقيق لظاهرة التكامل الثقافي، ولعمليات التغير الثقافي يتطلب الرجوع إلى حقائق علم النفس وبخاصة علم نفس الشخصية، فقد لاحظوا أن حالات رفض أو قبول تغيرات ثقافية في مجتمع ما ترتبط بصورة ما بمدى توافق العنصر المركب الثقافي الجديد مع الشخصية العامة لأعضاء المجتمع، هذا إضافة إلى ملاحظة أن شخصيات أعضاء المجتمع تتفق في سمات معينة، ويرجع ذلك الاتفاق إلى معيشتهم في ثقافة واحدة.

وبرغم حداثة الأنثروبولوجيا النفسية فإنه يوجد عدد كاف من الأبحاث يسمح باكتشاف بعض الترابطات بين الأنماط المختلفة في تربية الأطفال والأشكال الرئيسة لشخصيات الكبار. فمثلاً لوحظ أنه في المجتمعات التي يسود فيها نمط ثقافي يحتم الطاعة المطلقة من الطفل لوالديه كشرط مسبق للحصول على مكافأة ما، تتسم شخصيات البالغين الأسوياء بالخضوع والتبعية وعدم الخلق، هذا على الرغم أن هؤلاء الأفراد قد نسوا تمامًا خبرات الطفولة التي أدت إلى تكوين تلك الاتجاهات العامة، وفي تلك المجتمعات ذات السلطة المطلقة للآباء يكون رد فعل الشخص البالغ في أي موقف جديد هو البحث عن شخص له سلطان أو نفوذ ليطلب منه الدعم والتوجيه. ومن الأمور الجديرة بالملاحظة حول هذا الموضوع أن في بعض تلك المجتمعات ذات السلطة المطلقة للوالدين يوجد برامج لتدريب عدد قليل من الأفراد على القيادة، وذلك لعدم إمكانية ظهور قادة من خلال الأنماط الثقافية العامة، ففي قبيلة تانالا بمدغشقر يعامل أكبر الأبناء سناً معاملة خاصة منذ المولد، وتهدف تلك المعاملة الخاصة إلى تنمية الإرادة والمبادرة وتحمل المسؤولية، في حين يخضع باقي الأطفال للأنماط الثقافية العامة القائمة على الصرامة والكبت.

وفيما يتعلق بالترابط بين الأنماط الثقافية وسمات الشخصية عند الكبار تشير الأبحاث التي أجريت على الأسر الصغيرة جداً في المجتمعات الغربية إلى أن الأشخاص الأسوياء في تلك المجتمعات يميلون إلى تركيز عواطفهم وتوقعاتهم للمكافأة أو العقاب على عدد قليل من الأفراد، ويرجع هذا

التركيز بصورة لا شعورية لمواقف معينة في مرحلة الطفولة، وهي المواقف التي يستقي منها الأطفال كل الإشباعات والإحباطات من والديهم فقط. أما في المجتمعات غير الغربية ذات الأسر الممتدة فإن الطفل يتصل بعدد كبير من البالغين، وبالتالي لا يركز عواطفه واتصالاته عند الكبر بعدد قليل من الأفراد، وتتضمن كل علاقاتهم الشخصية اتجاهات لا شعورية تمثل في عبارة «حسنًا هناك آخرون للتعامل معهم»؛ ولذلك لا تنتشر في تلك المجتمعات غير الغربية مفاهيم الحب الرومانتيكي التي تركز عاطفة الحب على فرد معين بالذات ودون الاقتران به تصبح الحياة دون معنى، ولكن توجد هذه المفاهيم في الثقافة الغربية.

يتضح لنا من المثالين السابقين أن ثقافة أي مجتمع تحدد المستويات العميقة لشخصيات أعضائها عن طريق الأنماط الثقافية الخاصة بتربية الأطفال، ولا ينتهي أثر الثقافة في الشخصية عند ذلك الحد، وإنما يستمر هذا في تشكيل الكثير من العناصر الباقية في شخصيات أفراد المجتمع وذلك عن طريق تزويدهم بنماذج يقلدونها في استجاباتهم التخصصية أيضاً، وتستمر تلك العملية طوال حياة الفرد ولا تقتصر على مرحلة الطفولة، ويختلف هذا التأثير الثقافي في الشخصية عن التأثير السابق في عدة جوانب، فبينما يستمر تزويد الفرد بالنماذج طوال فترة الحياة فإن تطبيق أنماط تربية الأطفال خاص بمرحلة الطفولة فقط، وبينما تختص أنماط تربية الأطفال بتكوين المستويات العميقة للشخصية والتي تتمثل في القيم والاتجاهات العامة جداً يختص تزويد الفرد بالنماذج والمستويات السطحية

للشخصية والتي تتمثل في الاستجابات الظاهرية التخصصية، وهذا يؤيد القول المأثور: «العلم في الصغر كالنقش على الحجر».

وخلاصة القول: إن الثقافة هي المسؤولة عن الشكل الرئيس للشخصية في أي مجتمع، وباختلاف الثقافات تختلف أشكال الشخصية، ويقصد بشكل الشخصية مجموعة السمات الأكثر تكراراً بين أفراد المجتمع الواحد، وقد ميز «لينتون» بين شكلين، الشكل الرئيس للشخصية وهو يميز معظم شخصيات أفراد المجتمع، ويتمثل هذا الشكل الرئيس في مجموعة من القيم والاتجاهات العامة التي تتمركز في المستويات العميقة من شخصية الفرد، وتؤسس تلك القيم والاتجاهات في الشخصية أثناء مرحلة الطفولة عن طريق اتصالات الطفل المستمرة والقوية بأعضاء أسرته، وإلى جانب الشكل الرئيس للشخصية يوجد في المجتمع الواحد عدة أشكال أخرى للشخصية وهي شخصيات المركز؛ وذلك لأن الأفراد الذين يشغلون مركزاً اجتماعياً واحداً في المجتمع يقومون بأداء عدة أدوار متشابهة، ويطبع هذا الآداء شخصياتهم بسمات مشتركة، فمثلاً في أي مجتمع يوجد اختلاف بين شخصيات النساء وشخصيات الرجال، وبين شخصيات الأطفال والبالغين والشيوخ، وفي المجتمعات المتقدمة نلاحظ تشابهاً بين شخصيات الأطباء، ويختلف الأطباء عن شخصيات الموظفين الكتابيين، وما إلى ذلك من المهن.

رابعاً: الأنثروبولوجيا السياسية[1]

تبدو الأنثروبولوجيا السياسية مشروعًا قديمًا جداً، ولكنه جديد (أيضاً) وفي الوقت ذاته كاختصاص في البحث الأنثروبولوجي يظهر بتركيب متأخر. وهي بشكلها الأول تضمن تخطي التجارب والعقائد السياسية الخاصة، وهكذا تسعى لتأسيس علم الموضوع السياسي، عادَّةً الإنسانَ بشكله المسيس الوحيد، وباحثةً الخصائصَ المشتركة ككل التنظيمات السياسية المعترف بها في تنوعها التاريخي والجغرافي. وبهذا المعنى فإنها موجودة سلفاً في «السياسة» لأرسطو، الذي يعد الكائن البشري كائناً سياسياً بشكل طبيعي يسعى لاكتشاف القوانين أكثر من سعيه للتعريف بأفضل دستور قابل للتحقيق من أجل دولة ممكنة. وفي شكلها الثاني فإن الأنثروبولوجيا السياسية تحدد حقل دراستها في كنف الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو الأنثروبولوجيا. إنها تتعلق بالوصف والتحليل للنظم السياسية (بنيات، سيرورة، وأشكال)، الخاصة بالمجتمعات المعتبر بها؛ بدائية أو سلفية. وبهذا المعنى فإنها نظام مميز منذ فترة وجيزة أسهم في تكوينها (لووي) آسفاً على عدم الكفاية للأعمال الأنثروبولوجية في الموضوع السياسي.

---

(١) لمزيد من الاطلاع انظر كتاب جورج بالنديه: «الأنثروبولوجيا السياسية» - المنشورات الجامعية في فرنسا، باريس. الطبعة الأولى، ١٩٦٧، وهو بحث قام بترجمته غسان زيادة ونشر في مجلة الفكر العربي.

وهناك حدث ذو دلالة: أن الأسس المأخوذ بها في الولايات المتحدة في (١٩٥٢) لم تعر الموضوع أبداً أي اهتمام. وفي تواريخ أقرب (أيضاً) فإن الأنثروبولوجيين استمروا في إقامة محضر للنقص: إن أكثريتهم يعترفون «بأنهم أهملوا الدراسة المقارنة للتنظيم السياسي للمجتمعات البدائية». ومن هنا أتى سوء الفهم والأخطاء والتأكيدات المخادعة التي قادت إلى استبعاد الاختصاص والفكر السياسيين لعدد كبير من المجتمعات.

ومنذ عشرين سنة تقريباً بدأ الاتجاه ينعكس، فالدراسات على الأرضية تتضاعف، وبشكل خاص في أفريقيا السوداء حيث بحثت أكثر من مئة حالة، ويمكن لها أن تكون خاضعة لعلاج علمي. والإعدادات النظرية بدأت تعبر عن النتائج المحصلة بفضل هذه البحوث الجديدة، إن هذا التقدم الفجائي يفسر بإلحاحية الأخذ بعين الاعتبار المجتمعات المتغيرة المتحدرة من الاستقلال عن الاستعمار وبالقدر نفسه بالصيرورة الداخلية للعلم الأنثروبولوجي. إن علماء السياسة يعترفون - من الآن وصاعداً - بضرورة وجود أنثروبولوجيا سياسية، فـ(ألموند) يجعل من ذلك شرطاً لكل علم سياسة مقارن ويستنتج (ر. آرون) بأن المجتمعات المسماة نامية هي بصدد سحر علماء السياسة الراغبين بتجنب الأقليمية الغربية أو الصناعية. أما (باركنسن) فيعتقد بأن دراسة النظريات السياسية كان ينبغي أن يسلَّمَ أمرُها إلى الأنثروبولوجيين الاجتماعيين.

هذا النجاح المتأخر لا يمضي دون جدال أو غموض، وبالنسبة لبعض الفلاسفة وبخاصة (ر. ريكور) فإن الفلسفة السياسية هي وحدها المبررة

قياساً إلى أن الموضوع السياسي هو (بشكل رئيس) الموضوع نفسه من مجتمع لآخر؛ حيث السياسة هي «منحى» وهدفها طبيعة المدينة. وهذا رد كامل على علوم الظاهرة السياسية؛ وهذا الرد لا يمكن أن يكون منقوضاً بدوره إلا بتفحص متعمق لهذه الظاهرة. إن الشكوك المعبر عنها (مطولاً) من قبل هذه النظم، بالنسبة لميادينها أو مناهجها أو أهدافها المعتبرة ليست (أبداً) مناسبة لمثل هذا المشروع. وينبغي محاولة اختصارها.

لقد تعددت التيارات الفكرية في الأنثروبولوجيا السياسية، ونذكر منها:

أ) المنحى التوليدي أو المدرسة التوليدية:

إنها - في الوقت ذاته - الأولى في تاريخ النظام والأكثر طموحاً، إنها تطرح على ذاتها مسائل «الأصول» و«التطور»، بنفس طويل: الأصل السحري أو الديني للحكم الملكي، مختصر لتركيب الدولة البدائية، انتقال المجتمعات المبنية على «القرابة» إلى مجتمعات سياسية... إلخ. إنها موضحة بسلسلة مؤلفات منذ مؤلفات الرواد حتى الدراسة التاريخية لماكلود (أصل وتاريخ السياسة)، وهي تجد (بطريقة ما) نتيجة لها في الأبحاث الآتية (تلك الأبحاث المستوحاة من الماركسية) وتضم إليها مفهوماً جدلياً لتاريخ المجتمعات.

ب) المدرسة الوظائفية:

إنها تحدد هوية المؤسسات السياسية في المجتمعات المسماة بدائية انطلاقاً من الوظائف المعمول بها. وحسب تعبير (رادكليف - براون)،

فإنها تقود لدراسة «التنظيم السياسي» كمظهر لـ «التنظيم الكامل للمجتمع» . وفي الواقع، فإن التحليل يستحضر مؤسسات سياسية متعددة وهكذا جهاز (الحكم الملكي) ومؤسسات متعددة الوظائف مستعملة في بعض المناسبات لغايات سياسية، وهكذا التحالفات (المشادة بين العشائر أو الأنساب) .

هذا النوع من المنحى يسمح بتعريف العلاقات السياسية، والتنظيمات والمذاهب التي تكونها، ولكنه أسهم قليلاً بإيضاح طبيعة الظاهرة السياسية . إن هذه الأخيرة مميزة بوجه عام بمجموعتين من الوظائف : الوظائف التي تقيم أو تساند النظام الاجتماعي مرتبة التعاون الداخلي (رادكليف - براون) والوظائف التي تشكل ضمانة للأمن بتأمينها الدفاع عن الوحدة السياسية .

جـ- المدرسة النموذجية:

إنها استمرار للمدرسة السابقة، إنها تسعى لتحديد نماذج النظم السياسية ولتصنيف أشكال تنظيم الحياة السياسية . إن وجود الدولة البدائية أو عدم وجودها يبدو أنه يمنح معياراً أولياً للتمييز، إنه ذلك الذي يغلب في (النظم الأفريقية السياسية) . إن هذا التفسير ثنائي التفرع هو الآن قيد المناقشة . وفي الواقع، فمن الممكن بناء سلسلة نماذج تمتد من النظم ذات حكم الحد الأدنى، إلى نظم الدولة واضحة التكوين؛ وبالتقدم من نموذج إلى نماذج أخرى، فإن السلطة السياسية تتغير بشكل أفضل، وتتنظم بطريقة أكثر تعقيداً وتصبح مركزية . إن المعارضة بين المجتمعات الجزئية

ومجتمعات الدولة الممركزة (المركزية) تبدو قابلة للنقاش أكثر فأكثر، حتى إن الباحث الأفريقي (سوتال) أوضح ضرورة إدخال فئة ثالثة، على الأقل: (تلك المتعلقة بالمجتمعات الجزئية). وعلاوة على هذا النقد، فإن المنهج - بحد ذاته - موضوع موضع الشك، إلى درجة أن النموذجية هي أحياناً مشبهة بتكرار لفظي غير مجد، وكان من الملائم على الأقل عدم خلط وجمع النماذج «القابلة للوصف» والنماذج «القابلة للاستنتاج» (استون)، وكان من المهم عدم حذف الصعوبة الكبرى وهي أن: النماذج المعرف بها هي «متخترة»؛ وحسب التعبير الحماسي لـ (ليخ)، «لا يمكننا أن نرضى لوقت طويل بالمحاولات التي تقيم نموذجية لنظم ثابتة».

د) مدرسة المصطلحات:

إن تأشيراً أوليًا للظاهرات والنظم السياسية، ينطلق بالضرورة من محاولة تأسيس للفئات الأساسية. إنها مهمة صعبة تتطلب مسبقاً حصراً دقيقاً للحقل السياسي. إنها تبقى غير مكتملة أبداً، إن الباحث السياسي (أستون) في دراسة له حول أنثروبولوجيا السياسية يؤكد بأن موضوع هذا العلم يبقى معرفاً بشكل سيئ؛ لأن مشاكل عدة في المفهوم لم تجد لها حلاً. وإحدى المبادرات الأكثر اندفاعاً هي مبادرة (سميث)، إنها تحاول بحماس إقامة المفاهيم الأساسية: العمل السياسي، التنافس، السلطة، الهيمنة، الإدارة، الواجب... إلخ، وهي إضافة إلى ذلك مفيدة (بنتائجها)، عندما تعرض «العمل السياسي» بطريقة تحليلية، بهدف وضع إشارة

للجانب المشترك لكل النظم. ويبقى مع ذلك من الأسهل وضع معجم المفاهيم الأساسية مع منح هذا المعجم مضموناً.

إن تأسيس هذه المفاهيم يجب أن يكمل دراسة منتظمة للفئات والنظريات السياسية الأصلية، وسواء كانت هذه الأخيرة واضحة أو ضمنية، ومهما تكن الصعوبات المعترضة لترجمتها.

إن علم الألسن هو بذلك أحد الأدوات الضرورية للأنثروبوبوجيا وعلم الاجتماع السياسيين. ولم يكن سيعرف تجاهل حقيقة: أن المجتمعات المتأتية من أول هذين الأمرين (الفئات)، تفرض توضيح النظريات التي تفسرها، والأيديولوجيات التي تبررها، لقد اقترح (سوتال وبياتيه وبالنديه) الوسائل الي يجب استعمالها بغية بناء هذه النظم المظهرة للفكر السياسي الأصيل.

هـ) المدرسة البنيوية:

إنها تستبدل الدراسة التوليدية أو الوظائفية بدراسة للموضوع السياسي موضوعة انطلاقاً من الأنماط البنيوية.

إن ما هو سياسي يرى بمظهر العلاقات الشكلية التي تأخذ بالحسبان علاقات السلطة القائمة فعلياً بين الأفراد والجماعات؛ وإذا كنا نريد اللجوء إلى التفسير الأكثر بساطة فإن البنيات السياسية مثل كل بنية اجتماعية هي النظم المظهرة للمبادئ التي توحد العناصر المكونة للمجتمعات السياسية الملموسة. وفي مقال محفز مكرس لـ «بنية السلطة عند الحاجراي» وهي

مجموعة من الجماعات السكانية التشادية فإن (بويون) يدقق ويوضح واحدة من إمكانيات المنهج البنيوي المطبق في ميدان الأنثروبولوجيا السياسية. إن التطبيق يتطرق إلى مجموعة من المجتمعات المصغرة تظهر في الوقت ذاته قرابات (الاسم العام - الحاجراي - يوحي بها)، وتظهر تنوعات ذات دلالة، وخاصة في معالجة «موضوع السلطة». إن شرطا مزدوجاً وهو أنه يسمح بدرجتين ببناء نظم عائدة لمجموع صيغ التنظيم الاجتماعي السياسي، ونظام للنظم - ذلك النظام المعتبر معرفاً لسلطة الحاجراي.

ومن هنا، لحظنا الدراسة، في الوقت الأول، تأثير «العلاقات البنيوية الداخلية لكل تنظيم معتبر كنظام»؛ وفي الوقت الثاني تفسير لمجموع التنظيمات المدروسة «وكأنها نتاج مزيج». وفي الحالة المدروسة فإن المنهج يؤكد خاصة على الاختلاطات المختلفة (المعادلة، التمييز الجزئي، التوكيد المتغير) للسلطتين الدينية والسياسية، وعلى لعبة المنطق التي تتحقق تحت أشكال مختلفة داخل البنية الشمولية نفسها. والتنوعات تستطيع بذلك إظهار «الحالات» للبنية نفسها.

إن المنحى البنيوي المطبق على دراسة النظم السياسية يثير صعوبات خاصة به وعلى مستوى أعم، وخاصة تلك الصعوبات التي يأخذها (ليخ) بعين الاعتبار، وهو البنيوي المعتدل، في دراسته للمجتمع السياسي للكاشيين، إنه ينطلق من الواقعة الحتمية، وهي أن البنيات المعدة من قبل الأنثروبولوجي هي أنماط موجودة فقط بوصفها «تركيبات منطقية»، وهذا

ما يقود إلى سؤال أول: كيف نمتلك اليقين بأن النمط الشكلي هو الأكثر كمالاً؟ ومن جهة أخرى فإن (ليخ) يدرس صعوبة أكثر جوهرية، وهي أن النظم البنيوية (كما يصفها الأنثروبولوجيون) هي دائماً نظم ساكنة؛ إنها أنماط للواقع الاجتماعي تظهر حالة انسجام وتوازن مشدد عليه، بينما هذا الواقع ليس له ميزة الكل المنسجم؛ إنه يخفي تناقضات ويظهر تنويعات وتغييرات للبنيات.

وفي الحالة الخاصة للتنظيم السياسي للكاشيين فإن (ليخ) يشير إلى ظاهرة التذبذب بين قطبين - النموذج «الديمقراطي» والنموذج «الأرستقراطي» - أي عدم ثبات النظام، والأحكام المتغيرة للثقافة، وللبنية الاجتماعية - السياسية وللوسط البيئوي.

إن دقة العديد من التحليلات البنيوية هي ظاهرة وخادعة، إنها تفسر بشرط ضروري، ولكنه أحياناً مقنع: «الوصف لبعض النماذج غير الواقعية للوضع، آخذين بالعلم بنية نظم التوازنات». (ليخ).

جـ) المدرسة الديناميكية:

إنها تكمل - بجزء ما - المدرسة السابقة بتصحيحها في بعض النقاط، إنها ترغب بفهم ديناميكية البنيات بقدر فهم النظام للعلاقات التي تكون هذه البنيات (أي الأخذ بعين الاعتبار عدم التلاؤم، والتناقضات، والضغوط والحركة الملازمة لكل مجتمع). إنها تفرض ذاتها بقدر أكبر من أنثروبولوجيا السياسية؛ لأن الميدان السياسي هو ذلك الميدان حيث

الضغوط تفهم بأحسن شكل، وحيث التاريخ يطبع علامته بأوضح شكل.

إن (ليخ) قد أسهم مباشرة في تشييد هذه المدرسة بعد أن بحث أسباب ظهورها المتأخر. إنه يتساءل حول التأثير السائد (لدور كهايم) على حساب تأثير (باريتو) أو (ماكس فيبر) هذا التأثير الذي كان سيسمح بمفهوم يشدد على التوازنات البنيوية، وعلى التماثلات الثقافية، وعلى أشكال التضامن؛ علماً بأن المجتمعات الحاملة لنزاعات ظاهرة والمنفتحة على التغيرات كانت ستصبح «متهمة بالفوضوية». إنه ينقض «الأحكام المسبقة الأكاديمية» المركزية اللاتينية للأنثروبولوجيين الذين عملوا لإبعاد بعض معطيات الواقع، لكي لا يعالجوا إلا مجتمعات ثابتة، غير مهددة بالتناقضات الداخلية ومعزولة داخل حدودها. وباختصار فإن (ليخ) يدعو للأخذ بعين الاعتبار لما هو متناقض، لما هو صراعي، لما هو مقارب، ولما هو متعلق بالخارج، وهذا التوجيه يظهر ضرورياً لتقدم الأنثروبولوجيا السياسية لأن ما هو سياسي يعرف ذاته أولاً بالتماس الفوائد بالتزاحم.

إن أنثروبولوجيي مدرسة مانشستر تحت تأثير (غلو كمان)، يوجهون أبحاثهم نحو تفسير ديناميكي للمجتمعات. لقد درس (غلو كمان) طبيعة العلاقات القائمة بين «التقليد» و«الصراع» (التقليد والصراع في أفريقيا ١٩٥٥) بين «النظام» و«التمرد» (النظام والتمرد في أفريقيا القبلية ١٩٦٣). إن إسهامه يتعلق - في الوقت ذاته - بالنظرية العامة للمجتمعات التقليدية والسلفية، وبمنهج الأنثروبولوجيا السياسية. إن هذه الأخيرة تجد اقتراحات في نظريته عن التمرد، وفي دراساته المكرسة لبعض الدول الأفريقية.

إن التمرد يرى كصيرورة دائمة وتظهر (بطريقة ثابتة) العلاقات السياسية بين ما هو طقسي مطروح بجزء منه كأداة تعبير عن النزاعات وكأداة لتعطيها، مؤكداً على وحدة المجتمع.

إن الدولة الأفريقية التقليدية تبدو غير ثابتة وحاملة لجدل منظم (محول إلى طقوس) يسهم أكثر في مساندة النظام من تغييره، وللإثبات النسبي والتمرد المراقب، كان يمكن أن يكونا، بذلك المظاهر الطبيعية للسيرورات السياسية الخاصة لهذا الشكل من الدولة. ونحن نرى ذلك، إن الجديد النظري هو فعلي، ولكنه ليس مقاداً حتى أقصاه.

إن (غلوكمان) يعترف جيداً بالديناميكية الداخلية كعامل مركب لكل مجتمع، ولكنه يقلل من محمله التغييري، وهذه الديناميكية مأخوذة بالحسبان مثل التأثيرات الناتجة عن «الشروط الخارجية» - ولكن الديناميكية الداخلية تندرج ضمن مفهوم للتاريخ يربط المجتمعات المتأتية من الأنثروبولوجيا بتاريخ معتبر تكرارياً.

إن هذا التفسير يثير جدلاً، لا يمكن تجنبه، وتظهر أهميته في الواقع من خلال الفائدة المتصاعدة المعطاة لأبحاث الأنثروبولوجية ذات الفكر التاريخي، ومن خلال تضاعف الدراسات النظرية التي تقوم هذه الفائدة. وبعد فترة طويلة من الرصانة والتي تجد تفسيراً لها في الطموحات الكبيرة للمدرسة التطورية وببلاهات المدرسة الانتشارية وفي الموقف السلبي المتخذ للمدرسة الوظائفية فإن هذه الأسئلة تجد مكاناً أولياً لها في حقل البحث الأنثروبولوجي. إن مؤلفًا صغيراً لـ (إيفانز - بريتشارد) «الأنثروبولوجيا

والتاريخ» يسهم في إعادة تأهيل التاريخ. إن هذا الجدل لن يجد نفعاً له إلا إذا بدأنا بتمييز دون مخاطر الخلط لوسائل المعرفة التاريخية وللتعبيرات الأيديولوجية التي تغطي التاريخ الحقيقي.

وبالنسبة للأنثروبولوجيا السياسية فإن توضيح العلاقات القائمة بين هذه الحقول الثلاثة هو شرط ضروري.

وفي ميدان عُدَّ مطولاً، خارجاً عن التاريخ - ميدان المجتمعات والحضارات الأفريقية السوداء - فإن الأعمال حديثة العهد بدأت بإثبات خطأ التفسيرات السكونية جداً. إن حقيقة التاريخ الأفريقي الظاهرة من خلال تلاقي حياة المجتمعات السياسية والحضارات السوداء ومن خلال موتها لم يعد من الممكن تجاهلها.

وإن الأبحاث التي تأخذ بالحسبان هذه الأبعاد تظهر بأن الوعي التاريخي لم يظهر عرضاً تبعاً لتجارب الاستعمار وللتغيرات الحديثة؛ إن هذه الدراسات تثبت - بتشويه وجهة نظر (جان بول سارتر) - بأن الموضوع لا يتعلق فقط بتاريخ أجنبي «حول إلى تاريخ داخلي»، إن (نادل) في دراسته عن النوب (نيجيريا) يميز بين مستويين للتعبير عن التاريخ (مستوى التاريخ الأيديولوجي ومستوى التاريخ الموضوعي)، ويستنتج بأن النوب لديهم وعي تاريخي. وهذا الوعي يعمل على كل من المستويين.

إن أبحاثاً جديدة أثبتت هذا النزاع للتعبير التاريخي وللمعرفة التي تدير هذا التعبير: تاريخ عام (مثبت في خطوطه العامة ومتعلق بكيان أثني

كامل) وهو يتعايش مع تاريخ خاص (معرف به في التفاصيل، وخاضع لاعوجاجات، ومرجعة جماعات خاصة باهتماماتها النوعية) إن دراسة لـ (إيان كينيزون) التي وصلت إلى شعب اللايبولا في أفريقيا الوسطى تحمل توضيحاً ملموساً. إنها تعرف بالوضع المعتبر لهذين النمطين للتاريخ الأفريقي: على مستوى التاريخ المسمى لا شخصي، فإن الزمن والوضع هما مجموعان وعلى مستوى التاريخ المسمى شخصي، فإن الزمن ملغي والمتغيرات معتبرة وكأنها لا شيء - إن الأوضاع والاهتمامات للجماعات مجمدة بشكل ما.

إن هذا التحليل يظهر من جهة أخرى إلى أية درجة كان لدى (اللايبولا) وعيٌ لدور الحدث في صيرورة مجتمعهم، وقد حصلوا على معنى السببية التاريخية، وبالنسبة لهم، فإن هذه السببية لا تتأتى من النظام فوق الطبيعي؛ لأن الأحداث خاضعة مبدئياً لإرادة الناس.

إن العلاقة بين التاريخ والسياسة بادية للعيان، حتى في حالة المجتمعات المتروكة للمذاهب الأنثروبولوجية، ومنذ اللحظة التي لا تود بها المجتمعات ترى كنظم متخذة فإن القرابة الجوهرية لديناميكيتها الاجتماعية ولتاريخها لا يعود بالإمكان تجاهلها.

وهناك سبب آخر يفترض ذاته بقوة أكبر أيضاً وهو أن: درجات الوعي التاريخي متصلة بأشكال تمركز السلطة السياسية ودرجته. وفي المجتمعات الجزئية فإن حراس المعرفة المتعلقة بالماضي هم الماسكون بزمام السلطة على

العموم. وفي مجتمعات الدولة فإن الوعي التاريخي يبدو أكثر حيوية وأكثر شمولاً. وفي الواقع فإنه في كنف هذه الأخيرة يتم الفهم - بشكل واضح - لاستعمال التاريخ الأيديولوجي بغية أهداف الاستراتيجية السياسية، وقد أوضح (فانسينا) ذلك بشكل جيد بصدد رواندا القديمة. ويبقى التذكير بأن سير الدول المستعمرة (بفتح الميم) نحو الاستقلال قد وضع في خدمة القوميات تاريخاً حقيقيًا محارباً.

وهكذا إذاً فمن خلال لعبة الضرورة أصبحت ظاهرة الملامح، فإن النظرية الديناميكية للمجتمعات، وأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع السياسيين والتاريخ، قد تم تسييرها نحو توحيد جهودها. وهذا اللقاء يعطي حماسة جديدة لتلك الرؤية المسبقة (لدور كهاريم): «نحن مقتنعون... بأن يوماً سيأتي، وفيه لن يختلف الفكر التاريخي والفكر الاجتماعي (السوسيولوجي) عن بعضهما إلا ببعض الاقتباسات».

خامساً: الأنثروبولوجيا الحضرية:

تعد الأنثروبولوجيا الحضرية ميداناً من ميادين علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، وتهتم بالدراسة والتحليل بالمجتمعات المحلية الحضرية، فتدرس ثقافاتها والهجرة من الريف إلى الحضر وعمليات التكيف مع الحياة الحضرية وموضوعات الصحة والتعليم والفقر... إلخ، في المجتمعات الحضرية. فالمشكلة الحضرية هي جوهر الدراسة التي تقوم بها الأنثروبولوجيا الحضرية والنظرة الكلية إلى المدينة بوصفها وحدة كلية

متكاملة هي البعد المعرفي المحدد لهذا الميدان من ميادين الأنثروبولوجيا .

وهناك نماذج لدراسات عدة توضح الأبعاد المعرفية لميدان الأنثروبولوجيا الحضارية مثل : الدراسات الأنثروبولوجية الخاصة بالمقارنة بين الحياة الريفية والحياة الحضرية معتمدة في ذلك على أن المهاجرين هم قرويون أو ريفيون زرعوا زرعاً في المدينة، وكذلك عمليات التحول بين المهاجرين من الريف إلى المدينة .

ومن الدراسات التي تناولتها بالبحث الأنثروبولوجيا الحضرية والخصائص المشتركة بين مدن العواصم الصناعية . هل ترجع تلك الخصائص المشتركة إلى تشابه تاريخ تلك المدن؟ أم إنها ترجع إلى تشابه الوظيفة التي تؤديها، وفي تلك الحالة يمكن معرفة الخصائص نفسها ولو بشكل جزئي في العواصم التقليدية القديمة، وإذا كانت هناك فروق بين المدن التي تؤدي الوظيفة ذاتها، فهل تعود هذه الفروق إلى الفروق بين الثقافات التي تنتمي إليها تلك المدن؟ وهل هناك أوجه شبه ترجع إلى الحضرية أو ما يسمى (أسلوب الحياة في المدينة) وكذلك دراسات التعليم والصحة الحضرية استناداً إلى آثار الفروق بين الثقافات الفرعية وأساليب تربية الأطفال على مدى تقبل المادة التعليمية وعلى التحصيل الدراسي، وكذا الأمر بالنسبة للصحة والأمراض والاعتقادات المرتبطة بها .

سادساً: الأنثروبولوجيا التنموية (أنثروبولوجيا) التنمية:

يُعد هذا الميدان المعرفي من ميادين الأنثروبولوجيا المعاصرة، فقد ظهر اهتمام الأنثروبولوجيا الواسع النطاق بالتنمية في فترة حديثة نسبياً وتؤكد أنثروبولوجيا التنمية - كما يدل اسمها - : أهمية التغير الاجتماعي - الثقافي والمشكلات التي تثار حوله في تفاعل حركي مع القوى التي تدعم الاستقرار، ولعل أنثروبولوجيا التنمية تذهب إلى أبعد من ذلك حيث لا تهتم فقط بعمليات التغير ومصادره، بل تهتم أيضاً بالأساليب التي يمكن من خلالها تحريك هذه العمليات والمصادر وتوجيهاتها والتحكم فيها.

إذاً يدرس أنثروبولوجيا التنمية موضوعات التغير الاجتماعي الثقافي في البلدان النامية وعملية الانتقال في هذه المجتمعات من الحالة التقليدية إلى الحالة المتقدمة وما ينجم عن ذلك من مشكلات تتعلق بالمجتمع (أفراد ومؤسسات) إضافة إلى الآثار التي تتركها عملية التغير هذه في موضوعه (التكيف واستقرار الجديد) ويشكل المجتمع الجديد في البلدان النامية موضوعاً هاماً للدراسة الأنثروبولوجية التنموية، ولعل ذلك عرف باسم (تنمية المجتمع المحلي) ولقد شاع استخدام هذا الاتجاه في جميع برامج المساعدات الأجنبية والدولية، كما استعانت به الحكومات الوطنية، إذ تستند معظم برامج تنمية المجتمع المحلي إلى اعتقاد مؤداه: أن أغلب مجتمعات الفلاحين لديها فائض من قوة العمل ومن النقود في بعض الأحيان لا تستخدمه الآن، وعلى ذلك يمكن تنظيم هذا الفائض وتوجيهه نحو زيادة إنتاج المنتجات الزراعية، أو صناعة المساكن الصغيرة؛ فضلاً عن

النهوض بنوعية الحياة في المجتمع المحلي، وذلك بفضل تطوير العلاقات الشخصية بين الناس وتزويدهم بالخدمات، كالمياه، المدارس، ووسائل الاتصال. . . إلخ.

وتفترض بعض البرامج أن التطورات التي تتم على مستوى شعبي أو جماهيري لها تأثير تراكمي من حيث أنها تنشط الاقتصاد العام للمجتمع، كما أن بعض الدارسين قد نظروا إلى هذه البرامج على أنها وسيلة لتحقيق بعض مزايا التنمية للسكان الريفيين مباشرة وذلك مع أقل نفقات ممكنة.

بضوء ما سبق، فقد لعبت الأنثروبولوجيا دوراً معقولاً في برامج التنمية من خلال ما ذكرنا سابقاً، ولا شك أن هذا الدور في تطور مستمر، ويتطلب من أنثروبولوجيا التنمية الوقوف عند قضايا، مثل: هل التنمية تتمثل في إتاحة الفرصة لاستغلال أقل الموارد حتى يمكن مواجهة احتياجات مزيد من السكان؟ أم يجب أن تركز التنمية على النهوض بنوعية أو طبيعة الحياة بالنسبة لعدد محدود من السكان؟ وكيف يحدد الناس ما يعنونه بنوعية من الحياة؟ وإن عمليات التنمية تتطلب مزيداً من الاستغلال الواسع والمركز لموارد الطبيعة، فكيف يمكن إحداث هذا التغير الطبيعي وكيف يمكن التسامح بصدده أيضاً؟

ولعل السؤال الأهم والذي يوجه أنثروبولوجيا التنمية هو كيفية التحكم في زيادة السكان وصياغة الأهداف والحد من الاختلال الأيكيولوجي؟ وكذلك مواجهة مشكلات التنمية في الأمم الجديدة والأنماط التي تجسدها كالعولمة وغيرها.

كل ذلك يحدد ماهية البعد المعرفي المتطور لأنثروبولوجيا التنمية، ويجسد الدور المطلوب منها كميدان أنثروبولوجي معاصر نسبياً في الحدود المعرفية لعلم الإنسان.

سابعاً: الأنثروبولوجية البدوية:

وهي أحد ميادين الأنثروبولوجيا التي تدرس بالوصف والتحليل المجتمع البدوي، ما هو كنسق اجتماعي؟ وما خصائصه التي تميزه عن المجتمع المحلي (الريفي) أو المجتمع الحضري (المدني)؟ كما تدرس ثقافة المجتمع البدوي المكونة لها، وخصائصها وآلية التغير الثقافي في المجتمع البدوي، ومصادر عيش هذا المجتمع وعاداته وتقاليده والنظم المرتبطة به كنظم القرابة، والنظم الدينية والتربوية ونظم الزواج والدراسات المتعلقة بتنظيم عملية التضامن الاجتماعي، ومسألة الأمن الداخلي والخارجي في المجتمع البدوي، إضافة إلى مسائل تنظيم الزواج، والنشاط الاقتصادي وإجراء الطقوس الدينية، والنشاط السياسي. ولعل موضوع القبيلة والعشيرة يشكلان المحور الرئيس لموضوع ميدان الأنثروبولوجيا البدوية؛ لأنهما يشكلان النسق الاجتماعي للمجتمع البدوي من حيث البنية والخصائص والوظائف وما إلى ذلك من موضوعات مرتبطة بهما.

ثامناً: الأنثروبولوجية الاجتماعية:

تُعد الأنثروبولوجيا الاجتماعية أحد ميادين الأنثروبولوجيا، وكثيراً ما تستخدم بمعنى الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) بشكل عام. إنها الجانب

الاجتماعي السوسيولوجي لعلم الإنسان؛ فتدرس بالوصف والتحليل المجتمع الإنساني القديم والمتطور من حيث البناء الاجتماعي وخصائصه، والنسق الاجتماعي ومكوناته، وعادات وتقاليد المجتمع (كالعادات المرتبطة بالولادة والزواج والوفاة) والأنظمة الاجتماعية مثل: النظام الأسري والتربوي وغيرهما.. والأمثال الشعبية وموضوعات الفلكلور الشعبي والمعتقدات والمعارف الشعبية، مثل: الطب الشعبي، والأعياد الشعبية، والنذور والأولياء.. إلخ.

وبشكل عام تدرس الأنثروبولوجيا الاجتماعية أصول المجتمعات الإنسانية وتاريخها، فتتبع نموها وتطورها، كما تهتم بالدراسة والتحليل بالدور الذي يؤديه الفرد في المجتمع (الدور الاجتماعي) وتعدد هذا الدور وتغير وظائفه.

ولعل بداية هذا الميدان المعرفي ترتبط بما يسمى في علم الاجتماع بنشوء المدرسة الأنثروبولوجية حين أعلن (أوغست كونت) وتلاميذه عن ضرورة إنشاء علم جديد لدراسة ظواهر الاجتماع الإنساني، وقد لقيت هذه الدعوة قبولاً لدى طائفة غير يسيرة من العلماء الذين وجهوا نشاطاتهم إلى الدراسات المتصلة بنشأة الإنسان الأول ونظم الحياة البدائية فحاولوا أن يربطوا بين نتائجهم وبين ما يقول به علماء الاجتماع، وقد ظهرت في هذه المرحلة دراسات عدة أكدت تكون ميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية وبخاصة الدراسات المرتبطة بعادات وتقاليد الشعوب البدائية، مثل: دراسة (وسترمارك) الفنلندي الأصل عن الظواهر الأسرية وتطورها في مختلف المجتمعات التي زارها فدرس نظم الزواج، والطلاق، والعلاقات، والروابط

الأسرية، والقرابة، والانفصال، والهجر، ونظم الأخذ بالثأر والقتل، وتقديم الضحايا والقرابين، والمظاهر الطقوسية، وغير ذلك من الدراسات.

وهناك بعض الدراسات المعاصرة في ميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مثل: دراسة قرية (حوارين)[1].

ودراسة (الدكتورة علياء شكري) وهي بعنوان (دراسات ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية في المملكة العربية السعودية[2] وهي دراسة انثروبولوجية اجتماعية لقرى (محافظة سبت العلايا بلقرن) و(الطرفين) و(سبت تنومة).

ودراسة (د. محمد الجوهري) وهي بعنوان: (بعض مظاهر التغير في مجتمع غرب أسوان)[3].

ونظراً لأهمية ميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية من وجهة نظرنا، وإشارة لما بيناه فيما سبق أننا سنقوم بشيء من التوسع لهذا الميدان المعرفي، سنعرض موقع ومكانة هذا الميدان في نظرية المعرفة، وعملية نشوئه وتطوره وموضوعاته الرئيسة.

أ - الأنثروبولوجيا الاجتماعية (الموقع والمكانة المعرفية):

يتحدد موقع الأنثروبولوجيا الاجتماعية في نظرية المعرفة استناداً إلى تطور هذه النظرية «نظرية المعرفة» تاريخياً.

---

(١) د. محمد صفوح الأخرس: الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٨٢م.

(٢) انظر: د. محمد الجوهري: الأنثروبولوجيا، ص ٥٣٣.

(٣) المصدر ذاته، ص ٣٧٧.

فقد انقسمت نتيجة جملة من الأسباب إلى محورين رئيسين هما: [العلوم الإنسانية - والعلوم التطبيقية] (راجع القسم الأول: الأنثروبولوجيا الموقع والمكانة في نظرية المعرفة).

وهكذا العلوم الإنسانية انقسمت إلى ميادين معرفية عدة مثل: العلوم الأدبية - والتاريخية - والاجتماعية... إلخ. وكذلك كل ميدان انقسم بدوره إلى موضوعات شكلت فيما بعد ميادين (علوم) معرفية مستقلة. فانقسمت العلوم الاجتماعية إلى علم الاجتماع، وعلم اقتصاد سياسي، وعلم سكان، وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وهكذا كل علم من هذه العلوم انقسم أيضاً إلى ميادين معرفية، فانقسمت الأنثروبولوجيا إلى أنثروبولوجيا ثقافية ونفسية وسياسية وطبيعية واجتماعية... إلخ. وبدورها الأنثروبولوجيا الاجتماعية انقسمت أيضاً إلى موضوعات حتى الآن لم ترتق إلى مستوى العلم (الميدان المعرفي المستقل والمعترف به علمياً) مثل: البناء الاجتماعي - النظام الاجتماعي - الدور الاجتماعي... إلخ، وينطبق هذا أيضاً على الأنثروبولوجيا الطبيعية والنفسية والثقافية... إلخ.

ولا شك أن كل ميدان من هذه الميداين كان موضوعاً من الموضوعات التي تدرسها الأنثروبولوجيا، غير أن عملية التطور المعرفي التي شهدها كل موضوع أدت به إلى أن أصبح ميداناً مستقلاً، وهكذا استقلت جميع الموضوعات وباتت ميادين معرفية (علوم مستقلة)، كما يوضح الشكل التالي:

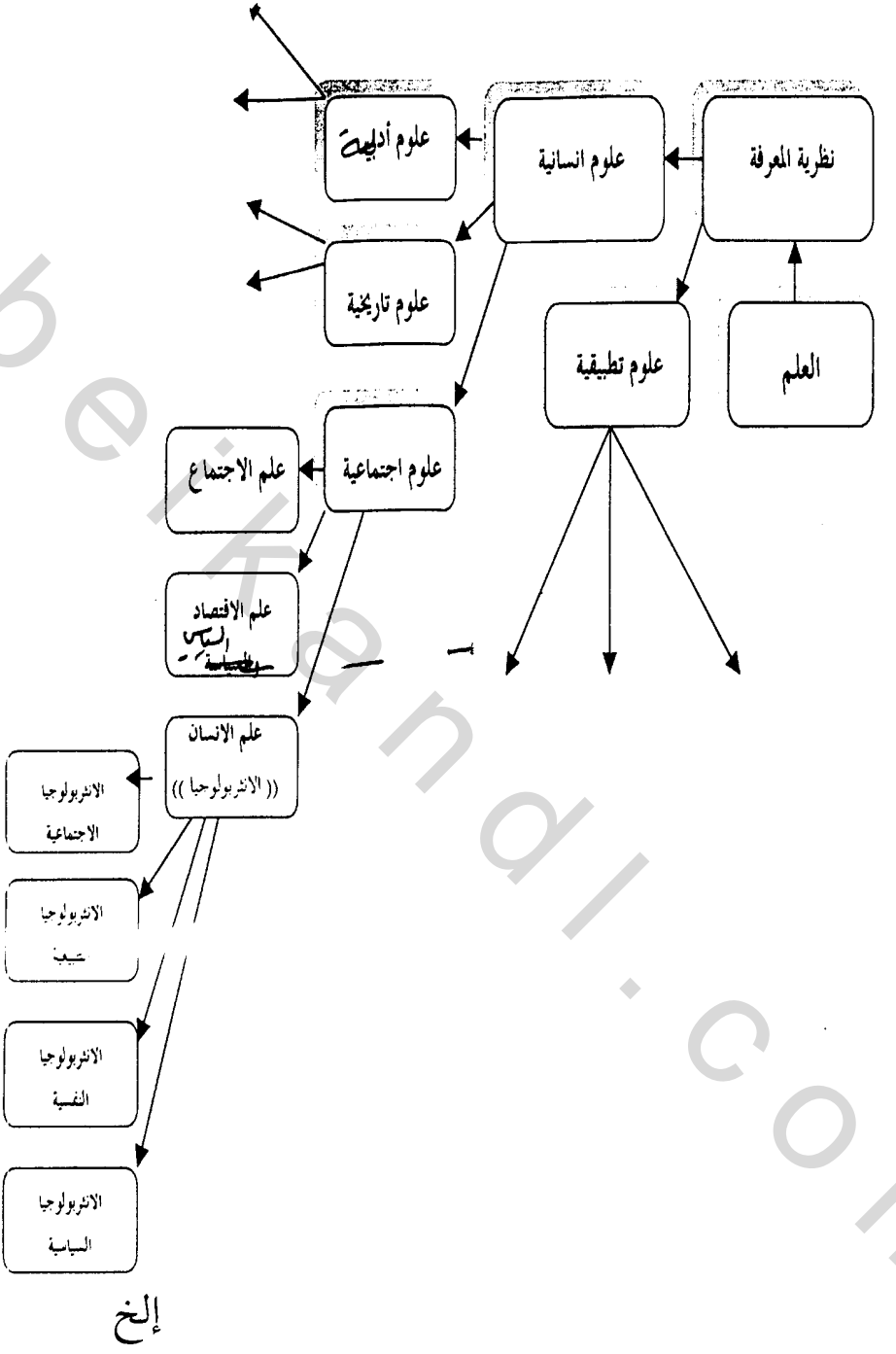

obeikandl.com

وتُعد العملية المعرفية المنطقية أحد جوانب التأكيد على عملية هذا الميدان المعرفي (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) بيد أن هناك جوانب أخرى تؤكد بدورها العملية أو الاعتراف العلمي بهذا العلم وهي مقاييس الاعتراف العلمي (التي أشرنا إليها في القسم الأول من هذه المحاضرات) وهي:

١- الاعتراف الأكاديمي بالأنثروبولوجيا الاجتماعية من خلال وجود هذا الاختصاص في مقررات تدريسية في الجامعات والمعاهد العلمية.

٢- انتشاره العلمي من خلال الكتب والدراسات والمقالات العلمية وغير ذلك.

٣- اعتبار موضوعاته عناوين لمؤتمرات أو ندوات علمية متخصصة على المستويات الوطنية والأقليمية والعالمية.

٤- انطباق قانونه العام والخاص والوحيد على هذا العلم؛ كما يوضح الشكل التالي:

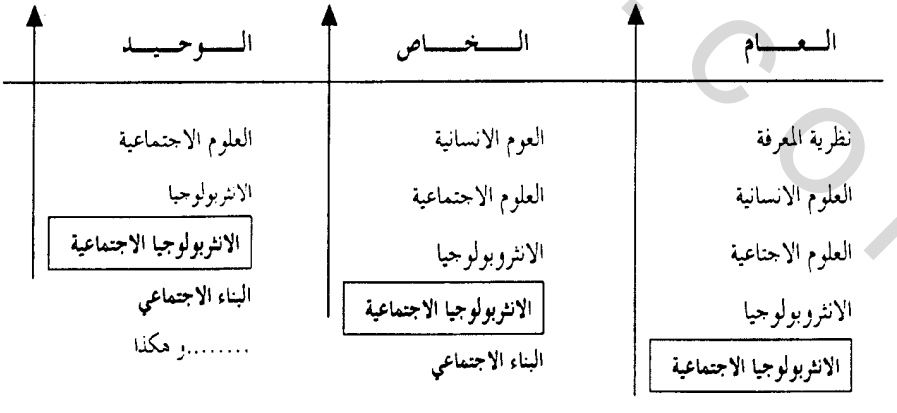

obeikandl.com

وهكذا ينطبق هذا القانون على الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وتصبح هي في موقع العام والخاص والوحيد معاً.

فهي: وحيد عندما تكون جزءاً من العلوم الاجتماعية عبر الأنثروبولوجيا، وهي عام عندما تصبح علمًا مستقلاً لها خاصها ووحيدها.

ب - الأنثروبولوجيا الاجتاعية (تحديد المفهوم):

كما بينا فيما سبق يتضمن تحديد المفهوم مداخل عدة، منها: المدخل اللغوي وهو العودة إلى قواميس اللغات وشرح: ماذا يقصد بمفهوم الأنثروبولوجيا الاجتماعية فيها؟ مثل:

القاموس المحيط «لغة عربية» قاموس المورد «لغة إنجليزية/ عربية». وهكذا بقية اللغات الأخرى.

والمدخل الاصطلاحي ويتضمن هذا المدخل بالنسبة لأي علم من العلوم ومنها الأنثروبولوجيا الاجتماعية توضيحه استناداً إلى الموقع في نظرية المعرفة حسب الشكل التالي:

نظرية المعرفة ← العلوم الإنسانية ← العلوم الاجتماعية ← الأنثروبولوجيا

الأنثروبولوجيا ← البناء الاجتماعي والدور الاجتماعي والعادات والتقاليد والأمثال الشعبية

واستناداً إلى ذلك يتحد تعريف الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها:

«أحد ميادين العلوم الاجتماعية، تدرس بالوصف والتحليل: البناء الاجتماعي والعادات والتقاليد والأمثال الشعبية... إلخ انطلاقاً من المستوى النظري والمنهجي للأنثروبولوجيا».

كما يتضمن المدخل الاصطلاحي شرح مفهوم الأنثروبولوجيا الاجتماعية، كما ورد في قاموس الأنثروبولوجيا حول الأنثروبولوجيا الاجتماعية أنها:

«أحد أجزاء الأنثروبولوجيا، تدرس السلوك الاجتماعي الذي يتخذ شكل نظم اجتماعية: كالعائلة، ونظام القرابة، ونظم العيش، ونظام العادات والتقاليد، ودراسة المجتمعات المحلية الصغيرة... إلخ».

وهنا لابد من الإشارة إلى أن اهتمام علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية استمر إلى فترة طويلة بدراسة الشعوب شبه البدائية إلى أن حدث (منذ فترة قصيرة) تغير أساسي وهو عدم اقتصار دراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية على المجتمعات شبه البدائية دائماً، شملت كذلك المجتمعات المتمدنة وبخاصة الصغيرة منها، مثل مجتمع القرية، أو الأحياء السكنية في المدن الكبيرة.

جـ - نشأة وتطور الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

تنقسم الفترة الزمنية والمعرفية لظهور الأنثروبولوجيا الاجتماعية كميدان علمي مستقل (عام) إلى المراحل التالية:

١: التمهيد لظهور الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

وتتحدد هذه المرحلة بالقرن الثامن عشر الميلادي، وتجلت المادة الأنثروبولوجية الاجتماعية بالمعطيات التالية:

* ما قدمه العلامة [مونتسيكو] في كتابه روح القوانين، حيث بين أن المجتمع يتكون من نظم ترتبط بعضها ببعض ارتباطاً وظيفياً، وبالتالي لا يمكن فهم القانون في مجتمع دون دراسة علاقته بالبيئة الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والسكانية للناس. كما ميز [مونتسكيو] بين البناء الاجتماعي للمجتمع ونظام القيم الذي يعمل في هذا البناء، وأطلق على البناء الاجتماعي اصطلاح «طبيعة المجتمع» أما نظام القيم فأطلق عليه اصطلاح «مبدأ المجتمع» وهو الرغبات والأهداف التي تدفع البناء الاجتماعي للعمل.

* ما قدمه العلامة [سان سيمون] من معطيات معرفية اجتماعية تجلت بضرورة إنشاء علم للمجتمع (علم وضعي للعلاقات الاجتماعية التي كانت يعدها مشابهة للعلاقات العضوية). وفي هذه المرحلة بدأت بوادر الاهتمام بالمجتمع البدائي وبخاصة مجتمع الهنود الحمر.

* إسهامات مفكّري القرن الثامن عشر الآخرين أمثال: (دافيد هيوم) و(آدم سميث) الّلذين نظرا إلى المجتمع الإنساني على أنه (نسق طبيعي) بمعنى: أنه ينشأ من الطبيعة البشرية ذاتها، ومن هنا انتشرت مفاهيم الأخلاق الطبيعية، وإسهامات العلامة [جون لوك] من خلال تعليقاته

حول الكتابات التي نشرت عن الهنود الحمر والأحكام العامة عن الشعوب البدائية استناداً إلى تلك الدراسات.

إذاً: فلاسفة ومفكرو القرن الثامن عشر الميلادي مهدوا لظهور علم يدرس النظم الاجتماعية، لعله هو الذي سمي فيما بعد «الأنثروبولوجيا الاجتماعية».

٢: مرحلة نشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

وتحدد هذه المرحلة بالقرن التاسع عشر الميلادي، حيث ظهرت مؤلفات عدة حول موضوع النظم الاجتماعية ودراسة المجتمعات شبه البدائية التي شكلت الموضوع الرئيس للأنثروبولوجيا الاجتماعية فيما بعد، ومن هذه المؤلفات:

* الثقافة البدائية للعلامة الأنثروبولوجي «أدوار تايلور».
* المجتمع القديم للعلامة الأنثروبولوجي «لويس مورجان».
* النظم السياسية والقانونية في المجتمع القديم للعلامة الأنثروبولوجي «هنري مين».
* دراسات العلامة الأنثروبولوجي «ماكلينان» حول نظم الزواج والقانون والدين... إلخ.

ويعد هؤلاء أول من درسوا المجتمعات القديمة وركزوا على النظم الاجتماعية، كنظام الزواج والنظام الديني وعلاقته بالنظام القانوني.

كما برزت في هذه المرحلة «مدرسة الاتجاه النشوئي» أي نشأة النظام الاجتماعي، و«المدرسة التطورية» مدرسة تطور النظام الاجتماعي.

وبشكل عام تجسدت نشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة النظم الاجتماعية في المجتمعات البدائية بهدف الوصول إلى أصل النظم، ولتحقيق هذا الهدف استخدمت الطريقة المقارنة في المعلومات عن المجتمعات البدائية التي كان مصدرها المستكشفون وأعضاء الحملات الاستعمارية التي كان الأوروبيون يقومون بها على المجتمعات البدائية المسالمة. ولعل مصطلح «علماء المقاعد الوثيرة» أطلق على رواد الأنثروبولوجيا الاجتماعية في هذه المرحلة؛ لأنهم كانوا يجمعون المعلومات عن المجتمعات من خلال الدراسات الوصفية وأقوال الرحالة والمستكشفين وغيرهم.

٤: مرحلة استكمال عناصر الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

وتحدد هذه المرحلة بالفترة الزمنية (الربع الأخير من القرن التاسع عشر) وتجلت إسهامات الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالمعطيات التالية:

٤-١ تحديد مضمون الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها الجانب الاجتماعي وليس الثقافي.

(الفرق بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية البحتة والأنثروبولوجيا الثقافية).

٤-٢ ظهور العلامة [إيفانز ريتشارد] ممثلاً لهذه المرحلة، والذي قرر أن

الأنثروبولوجيا الاجتماعية يجب أن تكون علماً متخصصاً، وأن تعتمد الدراسات الحقلية أو الميدانية في ذلك.

٤-٣ كذلك العلامة الأنثروبولوجي [هادون] الذي أكد على المنهجية الخاصة بالدراسات الأنثروبولوجية وهي الدراسة الحقلية أو الميدانية.

٥: مرحلة التخصص والتوسع في الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

وهي مرحلة بداية القرن العشرين زمنياً حيث تجسدت عملية التخصص في الأنثروبولوجيا الاجتماعية من خلال:

٥-١ التخصص في الموضوع: وهنا تحددت موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالبناء الاجتماعي والنسق الاجتماعي والدور الاجتماعي.

٥-٢ التخصص في المنهج: وتجسد هنا المنهج العلمي كمنهج استخدم في الدراسات الاجتماعية الأنثروبولوجية عبر نوع الدراسات الحقلية أو الميدانية (الأسلوب الميداني).

٥-٣ التمييز بين مفاهيم أو مصطلحات الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأثنوغرافيا، فعرفت الأثنوغرافيا بأنها: الدراسة الوصفية لثقافة مجتمع بالذات ومصطلح الأثنولوجيا هو الدراسة التحليلية المقارنة لثقافات المجتمعات القديمة والمتطورة.

٥-٤ انتشار الأنثروبولوجيا الاجتماعية بفضل الدراسات المتخصصة للأنثروبولوجيين والاعتراف العلمي بها.

obeikandl.com

وفي هذه المرحلة بدأت الأنثروبولوجيا الاجتماعية تنتشر كفرع مستقل عن الأنثروبولوجيا في الجامعات الأوروبية وبخاصة الجامعات البريطانية.

٦: مرحلة ازدهار الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

وتشمل هذه المرحلة زمنياً الربع الثاني من القرن العشرين (نهاية النصف الأول منه) تجلت معطيات الفكر الأنثروبولوجي الاجتماعي من خلال:

٦-١ بروز الاتجاه الأنثروبولوجي الاجتماعي البنائي - الوظيفي عبر مؤسسة [برونسلو مالينوفسكي] وزميله [رادكلف براون]. وقد أشرنا إلى هذا الاتجاه بشكل مفصل في القسم الأول من هذه المحاضرات.

٦-٢ تكون الجمعيات العلمية لدراسة المجتمعات الأفريقية، مثل: المعهد الدولي الأفريقي بجامعة أكسفورد، والمجلة الأنثروبولوجية الاجتماعية التابعة له.

٦-٣ التعمق في دراسة نظم القرابة، العشيرة، والنظم السياسية وغيرها استناداً إلى الأسلوب الحقلي (الميداني).

٦-٤ المنح والإعانات التي قدمتها أقسام الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية بجميع جامعات أوروبا وأمريكا بشأن القيام بأبحاث أنثروبولوجية اجتماعية.

٧ : الاتجاهات المعاصرة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

وتُعد هذه المرحلة زمنياً فترة النصف الثاني من القرن العشرين، وتجسدت المادة الأنثروبولوجية الاجتماعية في هذه الفترة بالمعطيات المعرفية التالية :

٧-١ ظهور بعض مدارس الأنثروبولوجيا الاجتماعية مثل :

* المدرسة الانتشارية : وتقوم على مبدأ أن النظم الاجتماعية كثيراً ما تستعار، وتنتقل من مكان لآخر الأمر الذي يؤدي إلى التشابه.

* المدرسة الوظيفية : التي تُعد المجتمعات أنساقًا اجتماعية تعتمد أجزاء بعضها على بعض، ويدخل كل جزء بعدد من العلاقات المعقدة مع الأجزاء الأخرى من خلال الدور المتخصص له. وهي مدرسة لا تهتم بالماضي، وتعتمد على الحاضر، وتقوم على مفاهيم محددة، وهي :

* الوظيفة الاجتماعية : المماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة البيولوجية من خلال وظيفة كل منهما.

* النسق الاجتماعي : علاقات بين شخصين تحكمها القوانين والضوابط الاجتماعية.

* البناء الاجتماعي : نسق اجتماعي يتميز بدرجة معينة من الثبات والاستقرار، ويتألف من جماعات وزمر (العشائر - القبائل - الأسر) تقوم بتنظيم علاقات الأفراد التي تدخل في نطاقها علاقتهم بعضهم ببعض، كما يسمح بالتكيف الخارجي مع البيئة الطبيعية وبالتكيف الداخلي بين الأفراد والجماعات.

٧-٢ دراسة المجتمعات المتمدنة: وتشمل دراسات المجتمعات الحديثة وعدم اقتصارها على المجتمعات البدائية وشبه البدائية. ويقصد بالمجتمعات المتمدنة جميع المجتمعات التي باتت فيها خدمات المدينة وخصائصها السكانية والعمرانية والثقافية والاجتماعية.

٧-٣ التعاون الوثيق بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية: على الرغم من اختلاف الموضوع، حيث يشكل البناء الاجتماعي أساس الأنثروبولوجيا الاجتماعية؛ فيشكل موضوع الثقافة أساس الأنثروبولوجيا الثقافية، ولكنهما مرتبطان ببعضهما.

د - الأنثروبولوجيا الاجتماعية: الموضوع الرئيس (البناء الاجتماعي)

يتكون البناء الاجتماعي لمجتمع ما من ثلاث مجموعات من العلاقات الاجتماعية هي:

المجموعة الأولى: وتتمثل في الوحدات الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع، وقد أطلق عليها اصطلاح (الأشكال المورفولوجية) وكل شكل منها يحتوي أنماطًا معينة للعلاقات الاجتماعية.

المجموعة الثانية: وتختص بالنظم الاجتماعية، وتلك تمثل تصنيف أنماط العلاقات الاجتماعية في مجموعات؛ تشترك كل مجموعة من موضوع واحد. فمثلاً نظام الزواج يتكون من أنماط العلاقات الاجتماعية المتعلقة باختيار، الزوجة وطرق الحصول عليها، ومراسيم الزواج، وما

إلى ذلك وكذلك الحال بالنسبة للنظام الاقتصادي والنظام السياسي والنظام الديني والنظام الأخلاقي وغيره.

المجموعة الثالثة: أنماط السلوك الاجتماعي التي يتكون منها البناء الاجتماعي، فإنها تتمثل في المراكز المختلفة التي يحددها المجتمع ويشغلها الأفراد بشروط معينة، ويقوم الفرد بدور اجتماعي معين عند تقمص المراكز المتاحة له، ويجب ملاحظة أن الدور الاجتماعي هو مجموعة من أنماط السلوك الاجتماعي المصاحبة لمركز معين.

وسنقف عند كل مجموعة من هذه المجموعات التي تشكل الموضوع الرئيس للأنثروبولوجيا الاجتماعية. وسيكون البناء الاجتماعي للمجتمعات البدائية هو المرحلة الزمنية المعتمدة، وهذا لا يعني أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية يقتصر موضوعها على دراسة هذه المجتمعات وحسب، فهي - كما أشرنا فيما سبق - تدرس أيضاً المجتمعات المحلية (الريفية) والمجتمعات المتمدنة بمجتمعاتها المشار إليها.

١- البناء الاجتماعي - تعريفه وخصائصه:

يختلف الأنثربولوجيون في تعريف اصطلاح (البناء الاجتماعي)، فإذا عدنا إلى قواميس علم الاجتماع وقاموس الأنثربولوجيا نجد التعريف التالي:

«البناء الاجتماعي نسيج من العلاقات التي تربط بين أعضاء المجتمع» وفي مكان آخر هو: «نسيج من العلاقات تربط الجماعات الأساسية في

مجتمع ما» وفي بعض الدراسات الأنثروبولوجية، والأنثروبولوجية الاجتماعية يعرف (البناء الاجتماعي) كما يقول الأنثروبولوجي (كيسنج): «يقصد بالبناء الاجتماعي النظم الاجتماعية التي عن طريقها تصل مجموعة من السكان إلى حالة التكامل والترابط، وهي الحالة اللازمة لتكوين المجتمع».

ويعرّف العلامة الأنثروبولوجي (إيفانز بريتشارد) البناء الاجتماعي بأنه: «الجماعات المستمرة في الوجود لوقت كاف بحيث تستطيع الاحتفاظ بكيانها كمجموعات رغم التغيرات التي تحدث للأفراد الذين يكونون تلك الجماعات».

أما الأنثروبولوجي الاجتماعي (راد كليف بروان) فيتلخص رأيه في البناء الاجتماعي بأنه يشمل ثلاث مجموعات من الظواهر الاجتماعية هي:

- العلاقات الاجتماعية بين فرد وآخر من أعضاء مجتمع معين، فمثلاً: نظام القرابة لأي مجتمع يتكون من عدد من العلاقات الثنائية، مثل: الأب والابن، أو شقيق الأم وابن اخته.

- الأدوار الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد والجماعات في المجتمع الواحد، وتنتمي كل مجموعة من الأدوار الاجتماعية إلى مراكز اجتماعية يحددها المجتمع ويشغلها الأفراد والجماعات حسب شروط معينة، فمثلاً تتفق المجتمعات الإنسانية على تمييز المراكز الاجتماعية التي يشغلها الرجال

عن تلك التي تشغلها النساء، وكذلك الحال بالنسبة للشيوخ والشباب والأطفال. ولعل هذه التعاريف تعد ركيزة أساسية لنا في تحديد خصائص البناء الاجتماعي، وهي:

❖ البناء الاجتماعي يتكون من أنماط من العلاقات الاجتماعية:

وهي علاقات محسوسة بين أفراد أو جماعات المجتمع، مثل: صورة البكاء الذي قد يطول أو يقصر عندما يقابل قريب قريبه بعد غياب طويل.. وطقوس التحية بين أفراد المجتمع لكل من الذكور والإناث، وطقوس الطعام في الولائم الشعبية، وغير ذلك من أنماط العلاقات الاجتماعية الأخرى.

❖ البناء الاجتماعي كلٌ أو نسيج متشابك الأجزاء:

ومثال ذلك في مجتمعنا العربي أن نجد علاقات وثيقة بين الدين وباقي عناصر البناء الاجتماعي، حيث ينظم الدين العلاقات العائلية من زواج وطلاق وتربية الأطفال وعلاقة الزوج بالزوجة ونظام الميراث. كما نرى أن العديد من المثل العليا العربية من كرم وشجاعة واحترام الوالدين وكبار السن وفضيلة التدين وعفة الفتاة ما هي إلا فضائل أوصى بها الإسلام. وإذا نظرنا إلى العادات اليومية نجد أثر الدين واضحاً ولا أدل على ذلك من كثرة ترديد اسم الجلالة في المحادثات اليومية. كما يؤثر الدين في حياتنا الاقتصادية وفي عادات المأكل والملبس، ومن أمثلة ذلك النقاش بين رجال الدين حول شرعية نظام الفائدة، والقوانين التي تمنع تعاطي المخدرات

والخمور . . إلخ . ومن هنا فالبناء الاجتماعي نسيج يتكون من أجزاء متشابكة متداخلة وليس من عناصر منعزلة مستقلة (يتكامل النظام الديني مع النظام الاقتصادي مع النظام التربوي وغير ذلك) .

❖ البناء الاجتماعي مستقر ولكنه ليس جامداً وليس خالداً:

يتميز المجتمع عادة بالاستمرار لفترات طويلة من الزمن بعكس ما يحدث للأفراد الذين يكونونه ، ويترتب على ذلك أن البناء الاجتماعي يتصف بخاصية الاستقرار ، ولكن هذا الاستقرار لا يعني الثبات أو الجمود . فمثلاً في كل يوم تحدث ولادات جديدة ، كما تحدث حالات وفاة ، ويهاجر أفراد منه ويأتي إليه آخرون ، وتتغير مظاهر العلاقات الاجتماعية فيه لتغير الأشخاص . كما أنه (البناء الاجتماعي) قد يتعرض في بعض الأحيان إلى ضغوط خارجية تعمل على انقراضه أو انقراض جزء منه . . . إلخ . إذاً تبين لنا مما سبق أن (البناء الاجتماعي) هو موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ويعني المجتمع في حالته البدائية والمتطورة بكل نظمه ومكوناته وأساليب عيشه وعاداته وتقاليده وغير ذلك . وبضوء ذلك سنقف عند نموذج للبناء الاجتماعي هو المجتمعات البدائية عبر المجموعات الثلاث التي يتكون منها هذا البناء ، وهي :

* الوحدات الاجتماعية .
* النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .
* أنماط السلوك الاجتماعي .

٢- البناء الاجتماعي: الوحدات الاجتماعية في المجتمعات شبه البدائية:

تُعد المجتمعات شبه البدائية إحدى أهم الموضوعات التي تدرسها الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ولعلنا من خلال الحديث عن خصائصها نستطيع تحديد ما هيتها وتكوينها البنيوي.

٢-١) خصائص المجتمعات شبه البدائية:

تحدد الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية خصائص المجتمعات شبه البدائية بالخصائص التالية:

* صغر حجم المجتمع بحيث يستطيع كل فرد فيه معرفة جميع أفراده.
* حالة التجانس في السكان (نوع واحد).
* العزلة الاجتماعية في العلاقات الاجتماعية.
* ممارسة جميع الفنون المعروفة في المجتمع من قبل جميع الأعضاء.
* نظام القرابة هو الأساس فيه وفي الغالب يتكون المجتمع البدائي من مجموعة من الأقارب.
* تنقسم العلاقات الاجتماعية إلى أنماط على أساس الاختلافات بين أفراد المجتمع من حيث انقسامهم البيولوجي إلى ذكور وإناث، ومن حيث السن (أطفال، شباب، كهول وشيوخ)، ومن حيث مراكزهم في النظام العائلي (آباء، وأمهات، وأبناء، وبنات، وأعمام، وعمات... وهكذا).

obeikandl.com

* التعاون من أجل تأمين سبل العيش والدفاع وتحقيق الأمن.

* مركز الفرد في المجتمع هو محور وجوده.

* احترام التقاليد الاجتماعية من قبل جميع أفراد المجتمع.

* عمليات الضبط الاجتماعي غير رسمية وتقوم على العادات والتقاليد.

* النظام السياسي بسيط ومحدود.

* النظام الأخلاقي القيمي أساس، ويربط أفراد المجتمع.

وبشكل عام: المجتمع البدائي بسيط من الناحية التكنولوجية، وقد يكون معقداً في نظمه الاجتماعية وفلسفاته القيمية والأخلاقية.

٢-٢ أنماط الوحدات الاجتماعية في المجتمع البدائي:

يقصد بأنماط الوحدات الاجتماعية (الأشكال المورفولوجية) وتتعدد هذه الأنماط في المجتمعات البدائية وهي الأسرة والعشيرة والقبيلة.

الأســـرة

يعرف العلامة (ميردوك) الأسرة بأنها «جماعة اجتماعية تتميز بمكان إقامة مشترك وتعاون اقتصادي ووظيفة تكاثرية (علاقة جنسية يعترف فيها المجتمع) وتتكون على الأقل من ذكر وأنثى بالغة وطفل سواء أكان من نسلها أم عن طريق التبني».

والأسرة نوعان: زواجية أو نواتية كما تسمى في بعض الأحيان،

obeikandl.com

بمعنى (الأسرة الصغيرة) وتسمى في بعض الأحيان الثنائية ومن أهم خصائصها :

- هي ظاهرة اجتماعية عالمية (لا يخلو مجتمع إنساني منها) .

- تقوم بوظائف رئيسة عديدة، بعضها ذات انتشار عالمي (الجنسية، الاقتصادية، التكاثرية، التربوية) .

- العيش المشترك في بيت واحد وقد يختلف وجوده عند أسرة الزوجة أو الزواج أو دونها .

- تطبق نظام (وحدانية الزوجة أو الزوج) .

والأسرة المركبة وهي :

متعددة الزوجات أو الأزواج : وتحدد خصائصها بالتالي :

- تتكون من أسر زواجية عدة تعيش معاً في وحدة اجتماعية وسكنية، وأساس ترابطها هو الزوج المشترك أو الزوجة المشتركة . وبالنسبة للأول يسمى (أسرة متعددة الزوجات) وهي منتشرة بكثرة في المجتمعات البدائية، أما بالنسبة للثاني ويسمى (أسرة متعددة الأزواج) وهي أن يكون عدة أزواج في الأسرة، وهذا النوع كما تشير الدراسات الأنثروبولوجية يعد وجوده قليلاً . ولابد هنا من الإشارة إلى أن هذه الدراسات تشير أيضاً إلى وجود نوع ثالث هو (الأسرة متعددة الأزواج والزوجات) وهذا ما يسمى (الزواج الجماعي) .

ورغم اهتمام علماء الأنثروبولوجية في القرن العشرين أثبتت

الدراسات عدم وجوده في العصر الحديث، لذلك ينظر إليه كشكل نظري فقط يعرف في المؤلفات الأنتروبولوجية بالزواج الجماعي كما أشرنا سابقاً.

- وقد أشارت الدراسات الأنثروبولوجية إلى ذلك من خلال الدراسة التي أجريت على قبيلة (كاينجاج) في المجتمع البرازيلي القديم، حيث وجد فيها: ٦٠٪ من حالات الزواج التي تمت خلال مئة عام كانت من الزواج الأحادي (أحادية الزوج أو الزوجة)، و١٨٪ نظام وحدانية الزوج وتعدد الزوجات، و ١٤٪ وحدانية الزوجة وتعدد الأزواج، و٨٪ تمثل نظام الزواج الجماعي.

- توجد (الأسرة متعددة الزوجات) في غالبية المجتمعات الإنسانية ولكنها توجد إلى جانب (الأسرة الزواجية).

- توجد (الأسرة متعددة الأزواج) بشكل نادر جداً وتنقسم إلى نوعين: الأول: يسمى (بالشكل الأخوي) زواج عدة أخوة من زوجة واحدة وبالنسبة للنسب فيعد من يقدم هدية قوس وسهم للزوجة عند ولادتها الولد الأول هو صاحب النسب حيث ينسب الولد إليه. وفي المرة الثانية ينسب الولد إلى الرجل الثاني وهكذا.

- والنوع الثاني: يسمى (بالشكل غير الأخوي) أي زواج عدة رجال لا تربطهم صلات الدم بامرأة واحدة تتمتع بمركز اجتماعي مرتفع ويعيشون في أكواخ سكنية واحدة.

- يتولد عن طبيعة تركيب الأسرة متعددة الزوجات خلافات

ومشاجرات، وهذا النوع من المشكلات لا يوجد في الأسرة الزواجية، ونؤكد هنا أن هذا النوع من الأسرة المركبة بأشكاله المختلفة (متعددة الزوجات - متعددة الأزواج - المشترك) يوجد في المجتمعات البدائية، وهو موضوع للدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية. ونؤكد - أيضاً - أن مجتمعاتنا الحديثة ربما لا يوجد فيها من هذا النوع إلا متعدد الزوجات فقط كما أثبتت الدراسات الأنثربولوجية الاجتماعية في القرن العشرين، وبالنسبة لمجتمعنا العربي الإسلامي فهذه المسألة محسومة؛ لأن القرآن الكريم حدد أبعادها في نظام الزواج وهي وجود نظام الزواج الأحادي ومتعدد الزوجات فقط.

❖ الأسرة الممتدة: وتتميز بالخصائص التالية:

- تتكون من عائلتين زواجيتين أو مركبتين أو أكثر، ويشترط توافر رابطة القرابة الدموية الأولية بين أعضاء تلك الأسرة، ويعيش أفرادها في وحدة سكنية واحدة، ويسود بينهم التعاون الاقتصادي (أب وزوجته، وأبناؤه وعائلاتهم) وأحياناً (كل ما سبق إضافة إلى أخوة الأب).

- تجمع أجيالاً متعددة وتتسم بصفة الاستمرار.

- تتطور الأسرة الممتدة في بعض الأحيان إلى عشيرة.

- تكوِّن وحدة اقتصادية متعاونة، ويكون مؤسسها هو رئيس تلك الوحدة الاقتصادية.

العشـــــيرة

تُعد العشيرة وحدة اجتماعية امتداداً للأسرة، وتتميز بتسلسل قرابي معين يتفق مع نظام سكني خاص؛ ولذلك هي وحدة مكانية، ويعتقد أفرادها في وجود (جد) مشترك قام بتأسيسها، وأحياناً يكون شخصية أسطورية. ومن أهم خصائصها (كما تدل الدراسات الأنثروبولوجية) نذكر:

- القرابة الدموية المباشرة.

- أفرادها يعيشون في مكان واحد (القاعدة السكنية).

- وجود التماسك الاجتماعي القوي.

- هي أشكال: الأبوية (عشيرة النسب إلى الأب) والأموية (عشيرة النسب للأم: عشيرة الأم) وعشيرة الخال (أي الأم بالنسبة لأخيها الذكر).

- العشيرة مختلفة الحجم (صغيرة وكبيرة).

- نسب العشيرة إلى جد مشترك سواءٌ أكان ذكراً أم أنثى.

هذا بالنسبة لخصائصها العامة، أما بالنسبة لوظائف العشيرة فهي:

- وظيفة التضامن الاجتماعي، بمعنى وحدة اجتماعية يسودها التماسك والولاء الاجتماعيين، ويترتب على ذلك شعور أفرادها بالأمن والاستقرار.

- وظيفة الأمن الداخلي والخارجي من خلال قيام رئيس العشيرة وأعوانه بالإشراف على تطبيق القانون الذي يتمثل بالأعراف والتقاليد.

obeikandl.com

- وظيفة تنظيم الزواج لتحقيق البقاء والاستمرار، ويكون ذلك إما عن طريق الزواج الداخلي (ابن العم) أو الخارجي من عشيرة أخرى.

- وظيفة تنظيم النشاط الاقتصادي من خلال توزيع العمل على أفراد العشيرة وتوزيع الملكية لهم.

وظيفة تنظيم النشاط الديني من خلال إجراء الطقوس الدينية لتحقيق الجانب الروحي في العشيرة.

- وظيفة النشاط السياسي فيما يتعلق بإعلان الحرب وشؤون الدفاع عن العشيرة أو جملة القرارات التي تتعلق بأمن وسلامة العشيرة تجاه العشائر لأخرى.

القبيلة

وهي وحدة اجتماعية تجمع عشائر عدة، وتنتشر في المجتمعات البدائية، وتتميز بالتالي:

- وحدة المكان واللغة والثقافة.

- وحدة جغرافية (مكانية) واحدة (أي يشغلون قطعة أرض واحدة).

- تتسم بتنظيم سياسي محدد (رئيس للقبيلة) و(مجلس قبيلة) من أهم وظائفه تنظيم شؤون الدفاع والحرب وتأكيد قوة الشعور الجماعي بوحدة القبيلة.

٣- البناء الاجتماعي - النظم الاجتماعية للمجتمعات شبه البدائية:

تشكل النظم الاجتماعية ضوابط للسلوك الاجتماعي في علاقات الأفراد بين بعضهم البعض لإشباع حاجاتهم، ولعلاقاتهم مع الآخرين؛ لذلك يعدها العلامة الإنثربولوجي (رادكليف براون) بأنها «أساليب نمطية للسلوك الاجتماعي يتكون منها الجهاز الذي عن طريقه يستطيع البناء الاجتماعي أن يستقر ويستمر». وفيما يلي عرض موجز لأهم النظم الاجتماعية التي تعمل على استقرار الأشكال الموروفولوجية التي أشرنا إليها فيما سبق (الأسرة، العشيرة والقبيلة).

٣-١❖ النظم القرابية:

وهي انتماء الفرد في علاقاته ومعيشته مع الآخرين إلى معيار القرابة، وهي إما دموية أو اجتماعية (غير دموية) يقول العلامة الأنثروبولوجي (إيفانز بريتشارد) في وصف قبيلة النوير بالسودان: «إذا أردت أن تعيش بين مجتمع النوير عليك أن تحترم النظم على معاملتهم كأقارب لك وهم يعاملونك كأحد أقاربهم، ويترتب على تلك العلاقات حقوق وواجبات ومميزات. وفي ذلك المجتمع يكون الفرد إما قريباً لجميع أفراده وإما غريباً ويعامل معاملة الأعداء».

وتسود في النظم القرابية قواعد تسلسل قرابي تتحدد بالتالي:

* التسلسل القرابي الأبوي (القرابة للأب).

* التسلسل القرابي الأموي (القرابة للأم).

obeikandi.com

* التسلسل القرابي الثنائي (الأب أم الأم).

وتتعدد صور القرابة مثل: أقارب الدم (أب، أخ، جد، حفيد)

وأقارب المصاهرة: (زواج الأخت، وزوجة الأخ..) وهكذا قرابة أولاد العم وأولاد الخال. إلخ.

نظم الزواج

وهي العناصر والقواعد والقوانين والحقوق والواجبات والعمليات التي تحقق استقرار ما يسمى بالزواج، وهو مجموعة القواعد التي تحدد صور العلاقات بين شخصين بالغين مباح بينهما شرعية العلاقة الجنسية، ويحققان الأسرة التي لا تتكون دونها.

وقد حاول علماء الأنثروبولوجيا حصر نظم الزواج بالتالي:

* عدد المشتركين في علاقة الزواج (فردي، زوج وزوجة) وزواج متعدد (تعدد زوجات أو تعدد أزواج) وزواج جماعي (كما أشرنا فيما سبق).

* نظم السكن بعد الزواج (مع أسرة الزوج، أسرة الزوجة، أسرة خال الزوج، وعدم التقيد بمكان معين من هذه الأمكنة).

* نظم اختيار الشريك، حيث لا يترك المجتمع الفرد حراً في اختيار شريكة حياته وإنما يضع له النظم التي يجب أن يستمر عليها مثل: نظام المحارم، ونظام الطبقة أو الدين أو المركز الاجتماعي.

* طرق اختيار شريكة الزوج، مثل: الوالدان والأقارب، الخاطبة أو

من يقوم بهذه المهمة، إضافة إلى وجود علاقات قرابية محددة؛ حيث ساد في المجتمعات البدائية نظام (السكن مع الخال) بالتالي يحتم المجتمع على الفتى أن يتزوج بنت خاله (إن وجدت) وأخيراً طريقة الشخص الراغب بالزواج حيث يحدد صفات شريكة حياته التي ستختار له.

* طرق الزواج، وهي الطرق التي يتم بها الزواج مثل:

- تقديم مهر للعروس وأهلها.

- العمل عند أهل العروس وخاصة في حال عدم توافر المهر فيعمل بمقدار قيمة المهر.

- الزواج المتبادل (المبادلة أو المقايضة) زواج أخ العروس من أخت العريس وهكذا.

- طريقة الخطف (خطف العروس).

- طريقة الميراث (وراثة الرجل زوجة شقيقه بعد وفاته).

- طريقة التبني (تبني طفل على أن يتزوج من أحد البنات فيما بعد).

- طريقة الهرب (الهرب مع الفتاة دون التقيد بالعادات والتقاليد).

* مدى قوة علاقة الزواج هل هي دائمة ويمنع فيها الطلاق أم يباح.

obeikandl.com

٣ - ٢ النظم الاقتصادية

يقصد بالنظم الاقتصادية الأساليب المستخدمة في إشباع حاجات الإنسان المادية، ورغم تنوع تلك الأساليب فإنها تتفق في الشكل العام الذي يتمثل في نشاط يجمع بين عناصر ثلاثة هي: الموارد، والأدوات، والعمل الإنساني. ولا يخلو المجتمع الإنساني من النظم الاقتصادية مهما كانت درجة تخلفه أو بدائيته، فالإنسان يأكل ليعيش، والإحساس بالجوع يدفع الإنسان للبحث عن الطعام، وبفضل الطعام (مع توافر شروط أخرى) يستمر جسم الإنسان حياً وتتولد لديه الطاقة اللازمة لحركته وأنشطته.

وقد اتسمت المجتمعات البدائية ببساطة نظمها الاقتصادية إذا ما قورنت بالمجتمعات المتمدنة، وفيما يلي عرض لبعض النظم الاقتصادية كما وجدت في المجتمعات البدائية وهي:

* نظام جمع الطعام من خلال البحث عنه في الطبيعة، وكثيرة هي القبائل التي كانت تبحث عن طعامها من خلال جمع الثمار والبذور في الأرض والحشرات والحيوانات من خلال صيدها.. إلخ.

* نظام الصيد من طيور وحيوانات، وكانت وسائل الصيد من الأدوات المصنوعة من الطبيعة ذاتها.

* نظام البستنة من خلال استئناس النبات «زراعة» والحيوان «تربية ورعي» وقد تحول نظام البستنة إلى نظام الزراعة الذي تميز بأدوات تقليدية

وأصبح الآن بأحسن الأدوات التكنولوجية.

* نظام الرعي كأسلوب للتكيف مع البيئة عندما تحسنت حياة الإنسان واستخدم ذكاءه. ولعل النمط البدوي في المجتمعات الراهنة يمتد في جذوره إلى هذا النظام.

٣ - ٣ النظم العقائدية والطقوسية

يقصد بالنظم العقائدية «النظم الدينية» حيث يوجد الدين في كل مجتمع إنساني، ويقوم الدين بوظائف اجتماعية رئيسة تهدف إلى حفظ تماسك أفراد المجتمع وترابطه، هذا إضافة إلى الوظائف النفسية مثل: الشعور بالراحة النفسية والقوة للاعتقاد في أن قوة غيبية عظيمة تساعد الإنسان في حياته وبعد مماته؛ ولذلك لا يعيش مجتمع إنساني دون دين، وقد تعددت صور أشكال ممارسة الطقوس الدينية في المجتمعات البدائية مثل: صورة نظام عبادة عناصر الطبيعة والإنسان «عبادة الأجداد» والحيوان... إلخ. وجميع هذه الصور تؤكد وظيفة الدين العامة بأنها تأكيد التماسك والوحدة والتعاون بين أفراد القبيلة الواحدة، الأمر الذي يترتب عليه استمرار البناء الاجتماعي.

obeikandl.com

ويقصد بها الشكل التنظيمي لعلاقة الفرد بالحاكم «الزعيم» وهو الشكل السياسي في البناء الاجتماعي. وقد شهدت المجتمعات البدائية أشكالاً عدة للنظم السياسية مثل: نظام زعامة رئيس القبيلة أو العشيرة أو رب الأسرة الممتدة، وسلطة هذا الزعيم على الأفراد حيث يجسد حقيقة علاقة الحاكم بالمحكوم.

٤- أنماط السلوك الاجتماعي «المركز والدور الاجتماعي»:

يعبر «المركز» عن الوضع الاجتماعي لفرد بالنسبة لغيره من أفراد المجتمع «مكانة الفرد في المجتمع».

ويعبر «الدور» عن سلوك أو مجموعة من أنماط السلوك المتعارف عليها والمصاحبة لمركز محدود، وبما أن الفرد يحتل عدة مراكز في مجتمعه فإنه يقوم بعدة أدوار ولكن على التوالي، بمعنى أنه في حالة القيام بالدور المصاحب كمركز الأب تكون الأدوار الأخرى المصاحبة لمراكز الزوج والمدرس والشاب.

وهناك نوع من المراكز يرثها الفرد من والديه أو التي تولد معه أو تفرضها عليه النظم الاجتماعية.

ونوع آخر يصل إليها الفرد بمجهوداته وعن طريق اكتساب الأدوار الخاصة في المجتمع.

وتتعدد أشكال تطبيقات المراكز في المجتمعات البدائية نذكر منها:

obeikandl.com

* مراكز أساسها النوع مركز للرجل وآخر للمرأة على أساس التقسيم النوعي «ذكور وإناث».

* مراكز أساسها العمر «مركز الطفل، البالغ - الشيخ».

* مراكز أساسها الثروة «يرتبط بالنظم الاقتصادية المشار إليها فيما سبق». إضافة إلى الثروة العامة للفرد في المجتمع، حيث يتحدد مركز الفرد الاجتماعي حسب ثروته أو ما يملك.

* مراكز أساسها المهارات «حسب إتقان المهارات المعترف بها اجتماعياً، أي المهارات التي يعترف بقيمتها في المجتمع». ففي المجتمعات ذات النزعة الحربية تعطى مراكز سياسية للمحاربين وهكذا.

* مراكز أساسها الانتماء لجمعيات معينة «دينية، سياسية، واجتماعية»، حيث تحدد مكانة ومركز الفرد في المجتمع استناداً إلى انتمائه لهذه الجمعيات.

وختاماً إذا كان البناء الاجتماعي في المجتمعات البدائية هو الموضوع الرئيس للأنثروبولوجيا الاجتماعية فإن البناء الاجتماعي في المجتمعات المتمدنة هو أيضاً موضوع من موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية المعاصرة، وهذا يتجسد من خلال أهدافها المرتبطة بتحديد نماذج وأنماط عالمية للأبنية الاجتماعية، وتحديد مظاهر التداخل والترابط بين النظم الاجتماعية، وتحديد عمليات التغير الاجتماعي، وكل ذلك لجانب الكشف عن القوانين الاجتماعية.